سلطنة عُمان
وزارة التربية والتعليم

شخصيات

عُمانية خلدها التاريخ

إعداد: دائرة المواطنة

٢٠١٨م

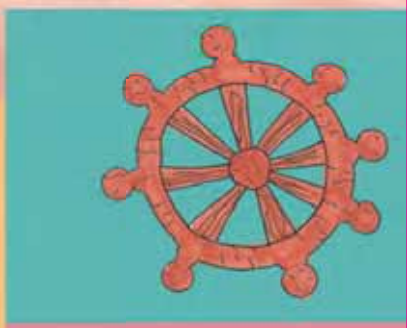

سلطنة عُمان
وزارة التربية والتعليم

شخصيات

عُمانية خلدها التاريخ

إعداد: دائرة المواطنة
٢٠١٨م

حقوق الطبع محفوظة لدى وزارة التربية والتعليم

حضرة صاحب الجلالة

السلطان قابوس بن سعيد المعظم

حفظه الله ورعاه

الإشراف العام

معالي الدكتورة مديحة بنت أحمد الشيبانية
وزيرة التربية والتعليم

فريق العمل

الإعداد:	دائرة المواطنة
التأليف:	أزهار بنت أحمد الحارثية
	حبيب بن مرهون الهادي
المراجعة التاريخية:	د.موسى بن سالم البراشدي
التدقيق اللغوي:	عبدالله بن أحمد بن داو سعد
	نصيب بن المر الصبحي
	د.سالم بن سعيد البوسعيدي
الرسم:	هالة بنت علي الريامية
التصميم والإخراج:	ذهلاء بنت سالم العنقودية

قصص الشخصيات

تقديم	٦
مقدمة	٧
أسد البحار	٩
الذكرى الخالدة	٢١
الرحلة	٣٣
المنقذة	٤١
رجل الإصلاح	٤٧
وجه من ذهب	٥٧
شيخ الناس	٦٧
صاحب الماء	٧٥
صانعة الانتصارات	٨١

تقديم

د. مديحة بنت أحمد الشيبانية
وزيرة التربية والتعليم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين،،،

أبنائي الطلاب والطالبات،

تحتضن ذاكرة العالم العديد من الشخصيات التي حفرت أسماؤها، وسطرت إنجازاتها، فكانت وما زالت صانعة حضارة، وبانية أمجاد على مر الأزمان.
ولهذا البلد العزيز " عُمان" نصيب وافر من هؤلاء العظماء والسلاطين والقادة الذين كان لهم دور مهم على مر التاريخ، وإسهامات علمية وثقافية كبيرة وعظيمة جعلت "عُمان" متحفا تاريخيا وبلدا موغلا في الحضارة.
عليه يسر وزارة التربية والتعليم أن تقدم إليكم كتابا بعنوان "شخصيات عُمانية خلدها التاريخ" يحوي بين دفتيه قصصا لبعض من عظماء التاريخ العُماني الذين استطاعوا بجهودهم المخلصة، وعزيمتهم القوية بناء تاريخ زاهر سَطر بماء من ذهب على هذا الوطن .
تحوي هذه القصص سردا لبعض الإسهامات التاريخية والثقافية والعلمية التي تشهد بعظمة الإنسان العُماني قديما وحديثا، ومدى تميزه وتفرده، وكيف استطاع أن يبني إرثا تاريخيا عريقا نفخر به اليوم.

أبنائي الطلاب والطالبات،

لكم في أجدادكم العظماء خير قدوة فكونوا خير خلف لخير سلف، واحلموا بمستقبل عظيم - بعظم تاريخكم - لكم ولوطنكم، وسطروا تاريخا جديدا كما سطره أجدادكم من قبل، وواصلوا المسيرة الجادة لتصلوا إلى ما تريدون، سائلين الله لكم التوفيق والسداد لخدمة هذا الوطن العزيز تحت ظل القيادة الحكيمة لمولانا حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم - حفظه الله ورعاه -.

والله ولي التوفيق،،،

مقدمة

أبناءنا الطلاب والطالبات..

تسعى وزارة التربية والتعليم إلى غرس قيم المواطنة الصالحة في نفوسكم ليكون لديكم الاستعداد التام للمشاركة بكل جدارة وفاعلية في خدمة وطنكم الغالي عُمان، وذلك من خلال التعرف على إحدى ركائز التاريخ العُماني، وهي الشخصيات العُمانية التي كان لها الدور الكبير والمهم في بناء هذا الوطن على فترات تاريخية مختلفة .

وتهدف هذه المجموعة القصصية للشخصيات العُمانية إلى تعريفكم ببعض الأدوار التي قام بها هؤلاء القادة والمفكرين والأدباء على اختلاف مجالات عملهم في سبيل رفعة وطننا الغالي عُمان. وإذ تقدم الوزارة هذا الكتاب لطلبة الصف السابع الأساسي؛ لترجو الاستفادة من المحتوى المعرفي الشائق كجانب إثرائي ينصب في خدمة العملية التعليمية عموما وغرس قيم المواطنة تحديدا .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه المجموعة القصصية لا تمثل إلا الجزء اليسير من الأمثلة الرائعة التي يزخر بها التاريخ العُماني العريق، والتي نعتز بها في حاضرنا، وينبغي علينا الاستفادة من سيرتها المشرفة في كيفية تحمل الصعاب والتغلب عليها.

أبناءنا الطلاب والطالبات..

سوف يكون لكم الدور الأكبر مستقبلا في بناء عُماننا الحبيبة، وتكونون نماذجا مشرفة يفخر بها الوطن من خلال تكريس جهودكم، وترجمة ما تعلمتموه واقعا ملموسا لرفعة هذا الوطن المعطاء .

وفقنا الله جميعا لخدمة هذا الوطن العزيز، تحت ظل قيادة مولانا حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم - حفظه الله ورعاه -.
والله ولي التوفيق ،،،

دائرة المواطنة

المجلة المعدنية
في ضبط العلوم البحرية

أسد البحار

وقف ولد صغير أمام البحر الكبير يراقب الأمواج الهادئة على بحر عُمان. كان ذلك الولد في العاشرة من عمره، وهو يذهب إلى نفس المكان كل صباح ينتظر ظهور السفينة وعودة أبيه.

كان بيته قريبًا من البحر واعتادت أمه أن تنتظره كل صباح لتناول الإفطار، لكنه تأخر اليوم قليلا، فذهبت لكي تناديه، حتى رأته قادما يركض نحوها. ابتسمت حين لوح لها بيده ودخلت البيت، تناولا الإفطار معًا وأخبرته أنها ستأخذه إلى جده بعد صلاة الظهر ليبدأ في تعلم الحساب وحفظ جزءٍ جديدٍ من القرآن.

فرح الولد؛ لأنه يحب الذهاب إلى جده، لكنه فجأة بدا حزينًا وسألها السؤال الذي يسألها كل يوم: متى سيعود أبي يا أمي؟

تبتسم الأم وتجيبه: قريبًا يا أحمد.

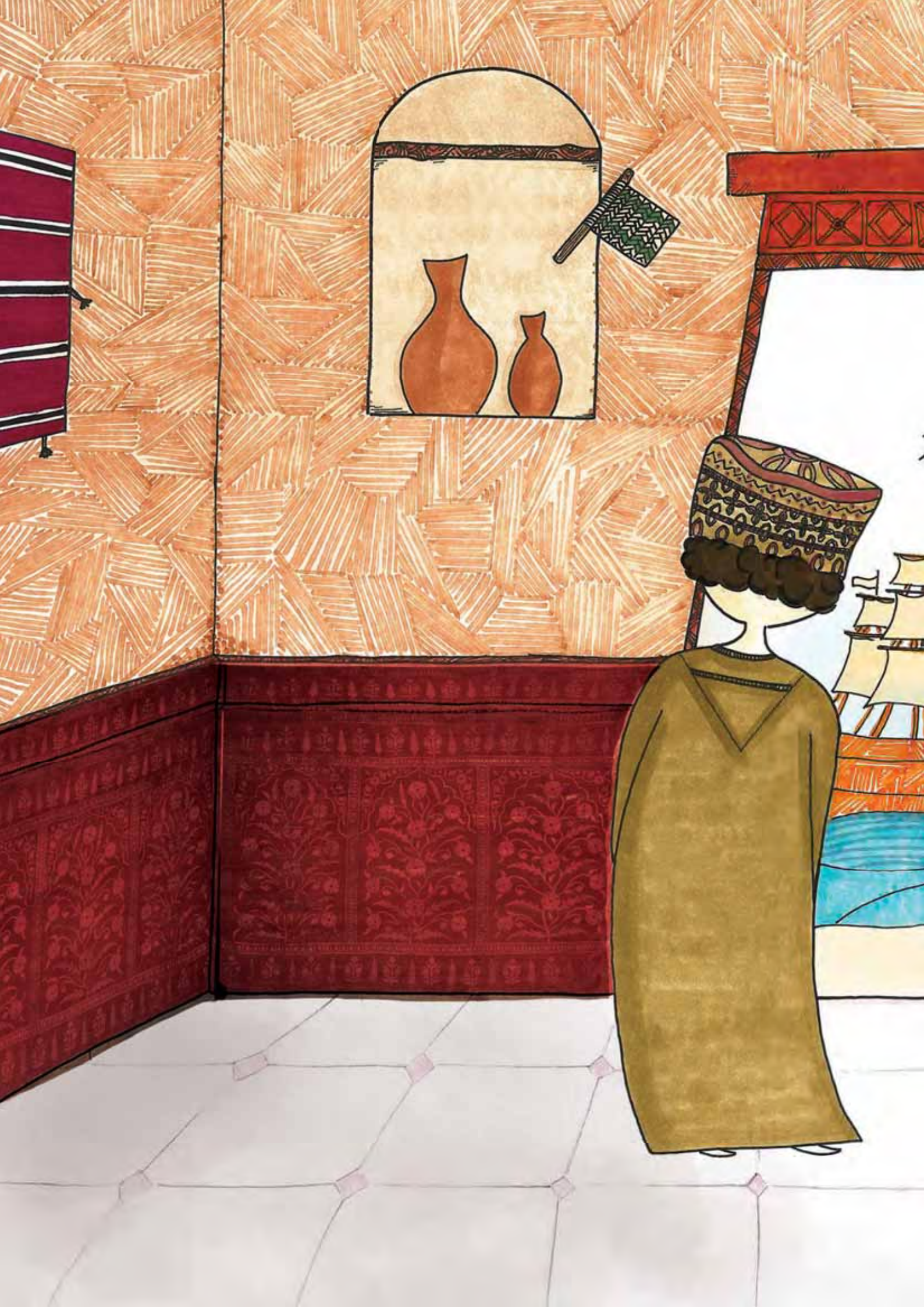

بعد أسابيع قليلة استيقظ أحمد وهو يشعر بشيء غريب، مكث في فراشه ولم يتحرك. نظر إلى السقف ثم سمع صوتا يحبه كثيرا. إنه صوت والده، قفز من فراشه ورآه أمامه فاحتضنه بقوة وجلس بقربه. وبدأ الأب يحكي مغامراته في البحر وأحمد يستمع إليه ويحلم أن يكون مثل أبيه وجده. أكثر ما يحبه أحمد حين يجتمع أبوه وجده ويتحدثان عن البحر والبلدان البعيدة وعن النجوم والكائنات البحرية وعن الأشياء الكثيرة التي يرونها في رحلاتهم البحرية. ينصت لهما جيدا ويحفظ كل ما يقولانه ويقول في نفسه، سأكون بحارا عظيما وعالما فذًا مثل أبي وجدي.

يمر الوقت سريعًا حين يكون والده في البيت، فهما يذهبان معا إلى كل مكان ويقرآن معا، ويتعلم من أبيه الكثير من العلوم. قرر أحمد بينه وبين نفسه أن يتعلم كل شيء بسرعة حتى يحقق حلمه. لذلك لم تكن الكتب تفارقه وما لا يفهمه فيها يذهب إلى والده ليشرحها له. في أحد الليالي وبعد أن انتهوا من العشاء جاءه والده وأخبره أنه سيسافر في الصباح الباكر. حزن أحمد كثيرًا لكنه تمنى لوالده رحلة موفقة وعودة سالمة. لم يقل أبوه شيئا، لكنه ابتسم فقط، فصمت أحمد أيضا، ثم دخلت الأم وبيدها بقشة صغيرة ووضعتها بجانب أحمد. لم ينطق بكلمة لكنه نظر إلى أمه وأبيه باستغراب. وقف الأب وقال له، نم جيدًا يا أحمد؛ لأنك سترافقني غدًا في أول رحلة لك وستكون الربّان المساعد لي. فتح أحمد عينيه وفمه دون أن ينطق بكلمة. ذهب أبوه وأمه للنوم وبقي وحده مذهولا.

تقلب أحمد في فراشه، لم يستطع النوم وهو يتخيل البحر والنجوم والسفينة والبحارة والبلدان الجديدة. كان سعيدًا جدا، فأغمض عينيه واحتضن بقشته ونام.

ومع الفجر ودّع أمه التي أوصته أن ينتبه لتعليمات والده وأن يكون صبورًا وقويًا وأنها ستنتظره بفارغ الصبر كي يحكي لها حكاياته. كان حزينًا لفراقها لكنه وعدها أن ينفذ ما أوصته به. انطلقت السفينة وقلب أحمد يدق بقوة. رحب به البحّارة وباركوا له ركوب البحر. كان فخورا بنفسه وسعيدا بالوقوف بجانب والده. مرت الأيام والأسابيع وأحمد مع والده لا يترك دفة السفينة ولا يفارق أباه حين يجلس للقراءة أو الكتابة. لم يمل من البحر ولم يشكَ في يوم من الأيام، فيالهَ من صبي شجاع! كل من السفينة أحبه لأخلاقه وذكائه وسرعة تعلمه.

عادت السفينة بعد مدة، والتقى أحمد بوالدته، وحكى لها كل شيء. كانت سعيدة وفخورة بابنها الصغير الذي أصبح بحارا يجوب البحار مع أبيه. مرت السنوات وتكررت رحلات أحمد مع أبيه وركب سفنًا مختلفة وتعلم الكثير عن الإبحار والملاحة البحرية ولم يفارقه والده يوما وظل يحلم بأن يقود السفينة بنفسه وأن يمسك الدفة دون أن يكون أحد بقربه.
هل تتحقق الأحلام ولو بعد حين؟

حان وقت رحلة جديدة من شواطئ عُمان إلى شرق أفريقيا، وقد اعتاد أحمد قبل أي رحلة أن يتفحص كل شيء بنفسه، لا يترك شيئا إلا متأكداً منه وخاصة الدفة والشراع وألواح السفينة. وبعد أن تأكد من سلامة السفينة وكل ما فيها أخبر أباه بأنهم مستعدون للرحلة. ابتسم أبوه وقال له: هذا جيد يا أحمد، لكنني لن أرافقك في هذه الرحلة، لقد بلغت سن السابعة عشرة وأصبحت ربانا خبيرا وبإمكانك الوصول إلى أي ميناء دوني. اندهش أحمد لهذه المفاجأة وشكر والده، ووعده أن لا يخيب ظنه وشعر بأن أحلامه بدأت تتحقق. صعد البحّار الشاب سفينة كبيرة وأمسك الدفة لوحده وانطلق لأول مرة دون دليل، ملوحا لوالده وقلبه مليئ بالحماس. غضب البحارة من ذلك القرار؛ لأن أحمد ما يزال صغيرا، وكانوا خائفين وبعضهم رفض

الاستمرار، لكن شجاعة أحمد وحكمته جعلتهم يطمئنون ويثقون به. لم تكن الرحلة صعبة، فأحمد أصبح خبيرا في الطرق البحرية لشرق أفريقيا ويشتاق الذهاب لأصدقائه هناك وللمدن التي زارها كثيرا. الحياة على السفينة أشهراً عديدة صعبة جدا، لكن أحمد لم يكن يشعر بذلك؛ لأنه كان يقضي وقته في القراءة والكتابة، ولم يكن ينام كثيرا لأنه مشغول بمراقبة النجوم وتحديد مسارها لكي يسهل عليه إيجاد المسالك البحرية الجديدة. حتى إن البحارة كانوا يستغربون من إصراره الدائم على معرفة كل شيء، وكانوا ينصحونه بقراءة كتب السابقين والاستفادة منها، فيرد عليهم بأنه يحب أن يجرب بنفسه قبل البدء في تطبيق أي شيء قرأه، ويحب أن يضيف إلى ذلك ما جربه وبحث فيه. توالت الرحلات من ميناء لآخر، ومن بحر لبحر، وفي كل رحلة كان أحمد بن ماجد يكتشف أشياء جديدة ويجرب أشياء أخرى. حياته في البحر علم واستفادة وفي الموانئ استكشاف ومعرفة.

في يوم من الأيام وفي أثناء طريقهم إلى أحد موانئ المحيط الهندي، هبت عاصفة شديدة، ونزل مطر غزير، ارتفعت الأمواج واشتدت الريح. كانت السفينة تتأرجح في وسط المحيط مثل لعبة صغيرة. حاول البحّارة السيطرة عليها، لكن الريح كانت أقوى، كانوا يبحثون عن بعضهم بعضا لكي يطمئنوا على حياتهم، لم يكن يهمهم سوى النجاة من الغرق. وكان أحمد بن ماجد الربان الشاب هادئاً ومتماسكاً. ورغم الرعب الذي يمرون به، إلا أنه جلس مراقبًا حركة الريح وقام بحسابات دقيقة لا يتقنها غيره؛ لأنه كان يطيل التأمل في النجوم ويرصد مطالعها ومغاربها وحركاتها مما جعله يكتشف قياسات جديدة لم تكن

معروفة من قبل، وبخاصة المواقع الصحيحة للموانئ، فقرر وسط تلك الرياح أن يغير مجرى الرحلة. نادى على الربابنة وأمرهم أن يغيروا طريقهم وحاولوا إقناعه بأن الأمر سيكون أخطر مما هو عليه الآن، لكنه أصر بأن الطريق الجديدة أكثر أمنا. خاف جميع من في السفينة من المجهول الذي ينتظرهم، لكن ثقتهم به جعلتهم أكثر هدوءًا، فغيروا وجهتهم وصادفوا صعابا لم يروا مثلها، لكنهم استمروا مؤمنين بالله ومعتمدين على علم ربانهم حتى نجو أخيراً من العاصفة الهائلة، وواصلوا طريقهم الجديد حتى وصلوا قبل الموعد المحدد. أقبل عليه بعض الرجال في الميناء وأخبروه بأنه متهور ولا يحق له أن يغامر بمثل هذه الرحلات الخطيرة. لكن أحمد ابتسم لهم وطمأنهم بأنه لم يكن متهورا ولا مجازفا وأنه يعلم مخاطر البحر جيدا، وأنه يتبع أساليب جديدة توصل إليها بعد مشقة وعناء من التأمل والمتابعة. بعد ذلك أصبح أحمد بن ماجد أسد البحار الهائج؛ لأنه بذكائه الفذ وحنكته يستطيع التغلب على كل ما يصادفه بقوة وشجاعة.

في كل رحلة كان البحارة يلاحظون أن أحمد يقضي أوقاتا طويلة وحده، يجمع الآلات البحرية والفلكية ويقوم بتفكيكها ونزعها وتركيبها مرات ومرات. وكان يسيطر عليهم الفضول من تصرفاته ويتمنون لو يعرفون ماذا يفعل. لكنه حين يبدأ في عمله لم يكن يتحدث مع أحد، ينسى نفسه مركزا في ما بين يديه، لم يكن البحارة يعلمون ماذا يفعل، ولم يكن يخبرهم بشيء. كان يخترع ويكتب ويقرأ ويسجل كل ما يراه، حتى حركة الأسماك والكائنات البحرية، فهو الذي علمهم أن رؤية طيور القرعي والمنجي وأسماك البتان والهلول دليل على أنهم قريبون جدا من بر الصومال. كل هذه الاستنتاجات والخبرات سهلت رحلاتهم ورحلات من بعدهم.

عقله لم يكن يتوقف عن التفكير حتى في أصعب الأوقات، ففي إحدى الرحلات البحرية إلى الهند شعر أن الطريق طويل وأنه لا بد أن يفعل شيئا، فأخرج أحد الآلات التي كان يشتغل عليها وهي البوصلة التي كانت تستخدم في تحديد الطرق منذ سنوات طويلة، لكنها كانت تبدو مختلفة لأنه أضاف إليها إبرة مغناطيسية لتحديد الجهات بسرعة ودقة، وبالفعل كانت اختراعا عظيما جعل رحلتهم أسرع وأسهل. بعد ذلك، بدأ يستخدم اختراعاته الأخرى التي اشتغل عليها وطورها للرصد والقياس مثل الاسطرلاب والخشبة فانتشرت اختراعاته بين البلدان وصار الجميع يقتدي بها ويتبعها، فأفاد الناس وسهل الكثير من الرحلات البحرية. وأكثر ما أفاد البحارة الرحمانيات التي كان يعمل عليها، وهي دليل بحري يحتوي على معلومات بحرية وجغرافية وفلكية.

كان الناس ينتظرونه.. ليس في موانئ عُمان وحدها بل في الموانئ المختلفة من الهند وشرق أفريقيا وأوروبا، فهو ليس بحارا فقط، بل عالمٌ وأديبٌ. وفي أثناء رسو السفن كان يحضر النقاشات العلمية والفكرية للشيوخ ويحب أن يزيد من علمه وثقافته حتى بعد أن كبر. فدرس الكتب الجغرافية وكتب الشعر والأدب والجغرافيا وتعلم الحساب وأصبح قادرا على مقارنة قياسات الآخرين. كان الناس يعرفون أن التحدث معه ليس صعبا فقد تعلم لغات البلدان التي يسافر إليها فأتقن لغة الشول والفارسية والقليل من السواحيلية. وكلما تقدم به العمر ازداد علمه واتسعت ثقافته.

بلغت الكتابات التي ألفها ٤٠ مؤلفا، ومن أشهرها كتاب "الفوائد في أصول علم البحر والقواعد" وهو أهم وأشهر كتاب عربي عن الملاحة البحرية. وكان البحّارة في المحيط الهندي يعتمدون عليه؛ لأن فيه وصفا لطرق الملاحة البحرية للمحيط الهندي وبحاره وخلجانه، ويتضمن فوائد حول الأنهار والجبال والسواحل والجزر وأسماء النجوم والرياح الموسمية.

قضى أحمد بن ماجد أكثر من ٥٠ سنة من عمره في البحر، وحتى بعد أن كبر لم يتوقف عن المغامرات والاكتشاف، فأصبح أشهر البحارة وأخذ الناس يتناقلون اسمه في كل مجلس. وهاهو الولد الصغير الذي كان يراقب البحر كل صباح وفي قلبه أمنية ركوبه، أصبح شيخا كبيرا يراقب البحر وفي قلبه ذكريات وأمنيات. يتذكر والده وجده الذين علماه حب البحر و شغف الاطلاع، يتذكر أمه التي تنتظره كل صباح عند باب البيت، ويتذكر أصدقاءه في السفن والموانئ، ويتذكر البلدان الكثيرة التي زارها. كان حب البحر يكبر في قلبه إلى أن أصبح شيخًا كبيرًا؛ لأنه حب لا نهاية له، ولولا عمره الذي تجاوز الثمانين عاما لم يكن ليتوقف عن الإبحار وقيادة السفن.

لم تنته قصة أحمد بن ماجد ولن تنتهي، فقد ظل البحارة العرب من كل مكان يدعون له قبل البدء في أية رحلة. وها هي قصته تكبر في قلوبنا. ولن ينسى أحد أسد البحار الذي تحدى أقوى الأمواج و أصعبها وأشد العواصف والرياح، ولن ينسى أحد هذا العالم الكبير الذي جعل من الرحلات البحرية أكثر سهولة وبساطة. أحمد بن ماجد البحار العماني سيبقى اسمه يتردد في كل مكان.وستظل آثاره خالدة على مر الزمان.

الذكرى الخالدة

شمساء الصغيرة تبكي في غرفتها، تبدو حزينة جدا، ولم يستطع أحد الاقتراب منها. بعد مدة قصيرة دخلت عليها أمها وجلست بجانبها ومسحت على رأسها بهدوء.
ترى ما سر حزنها؟ هل هي غاضبة لأن أهلها لم ينفذوا لها طلبا؟ أم هي حزينة بسبب مشكلة مع أحد أخواتها أو صديقاتها؟ لماذا تبكي بهذا الشكل منذ ساعات؟ هل نتركها حزينة ووحيدة أم نذهب لنواسيها ونستمع إليها؟

تحركت شمساء قليلا حين شعرت بيد أمها على رأسها وجلست. قالت لها أمها: أريد منك أن توضحي لي بهدوء سبب بكائك. انفعلت شمساء قليلا وقالت: لأني لا أريد الانتقال إلى المدرسة التي اخترتموها لي.

قالت أمها: لكنها مدرسة جيدة وقريبة من البيت ومعظم زميلاتك انتقلن إليها، ومن الصعب أن ننقلك لمدرسة أبعد.

بدأت شمساء تبكي مرة أخرى.

- يا شمساء يا حلوة، الأمور لا تحل بالبكاء والحزن. يجب أن نتحدث بهدوء ونتناقش حتى نجد الحل المناسب للجميع. هكذا قالت الأم لكي تهدئها.

- أمي... أنا الآن في الصف الخامس، واسمي شمساء وأريد الانتقال إلى مدرسة شمساء الخليلي. والسبب لأن اسمي شمساء وأحب أن أدرس في مدرسة تحمل اسمي.

ابتسمت الأم وقالت: يا له من سبب جميل! سنحاول يا حبيبتي أن ننقلك لهذا السبب المقنع. ولكن هل تعرفين لماذا سميت هذه المدرسة باسم شمساء الخليلي؟ وهل تعرفين من هي شمساء؟

صمتت شمساء الصغيرة ونظرت إلى السقف وقالت: لا أعرف. لكن اسمها مثل اسمي.

ابتسمت الأم وقالت: لست الوحيدة التي اسمها شمساء، ولست الوحيدة التي تحمل اسم مدرسة أو اسم شخصية معروفة.

- أمي؟

- نعم

- لماذا سميتموني شمساء؟

- لن أخبرك الآن. اذهبي أولا واغسلي وجهك ونامي وغدا سأحكي لك القصة كاملة.

انتهى البكاء واختفى الحزن ونامت شمساء الصغيرة وهي تحلم بالأمل الجديد.
في اليوم التالي، استيقظت شمساء بنشاط وأسرعت إلى أمها؛ لكي تخبرها قصة اسمها، أو ربما تخبرها قصة المرأة التي سميت على اسمها.

- اغمضي عينيك يا شمساء وتخيلي أنك في زمن بعيد.

- كيف يا أمي؟ ما ذلك الزمن؟

- حسنا، تخيلي أنك تعيشين في عمان في القرن التاسع عشر الميلادي، أي قبل مائتي عام تقريبا. حيث القلاع والحصون ومدارس القرآن والمزارع المليئة بالنخيل. تخيلي الناس يعيشون في بيوت صغيرة مبنية من الطين قريبة من بعضها بعضاً.

- أمي، الزمن بعيد، لا أستطيع التخيل

- حاولي يا شمساء. ركزي وتخيلي ما قلت.

شمساء الآن مغمضة عينيها، أمها تراقبها بهدوء. وبدأت تحكي بصوت منخفض قليلا، وقالت:
" كان يا مكان في بلدة صغيرة في عمان اسمها بوشر، ولدت فتاة جميلة. كان أبوها سعيدا جدا بولادتها وسماها شمساء لحسنها وجمالها.

وهو رجل عظيم اسمه العلامة سعيد بن خلفان الخليلي من سلالة عريقة ذات أثر كبير في تاريخ عمان، فجده الأكبر الإمام الصلت بن مالك الذي عاش في القرن الثالث الهجري والذي حكم عمان لمدة خمسة وثلاثين عاما، وقد استطاع من خلالها أن يحقق لعمان الكثير من المنجزات الحضارية. كان رجل علم وقيادة، وهو أيضا عالمٌ وشاعرٌ وزعيمٌ سياسي."

- ماذا تتخيلين يا شمساء؟

قالت: أتخيل رجلاً يلبس دشداشة وعمامة ذا لحية بيضاء طويلة في غرفة صغيرة من الطين، ويحمل طفلة صغيرة جدا ملفوفة في لحاف وردي اللون.

ابتسمت الأم وقالت: ولماذا تتخيلينه ورديًا؟

قالت شمساء: لأنها بنت وكل البنات حين يولدن تكون مستلزماتهن وردية.

- هذا جميل. دعينا نكمل التخيل

- حسنا يا أمي. أتخيل أيضا جنودا منتشرين حول البيت، ونساء كثيرات داخل البيت يهنئن العائلة بولادة الطفلة الجديدة وأرى الأم نائمة متعبة. ومن أمها؟

- سؤال جيد يا شمساء. أمها ابنة الشيخ سَليمان بن ماجد الخروصي؛ وقد أنجبت بعد شمساء ولدين هما محمد وعبدالله. استمري في التخيل ولا تفتحي عينيك. نحن في زمن بعيد جدا عيشي فيه الآن حتى ننتهي من القصة.

- أتخيل بوشر البلدة الجميلة فيها مياه كثيرة وبستاين ومزارع والأشجار منتشرة في كل مكان حول البيوت. وأن هذه الطفلة ستكون محظوظة بهذا المكان الرائع.

- ممتاز يا شمساء، بدأت تعيشين معهم. وتخيلك حقيقي تماما، فشمساء عاشت في هذا المكان مع أبيها وأمها وإخوتها. لكنهم لم يستمروا فيه طويلا؛ لأنهم انتقلوا إلى سمائل.

- لماذا تركوا بوشر يا أمي؟

- انتقلوا إلى سمائل؛ لأن أباها أصله من سمائل وبيته هناك. لا تستعجلي الأحداث. سأخبرك بكل شيء.

- تخيلي الآن شمساء، وهي تكبر، وتتعلم وتجلس مع أبيها كل يوم ساعات طويلة.

- هل تعلمين لماذا؟

- لأن أباها مرجع العلم،
وهي تتمنى أن تصبح مثله.

- وهل أصبحت مثله يا أمي؟

- طبعا يا شمساء، وإلا لماذا نتحدث عنها الآن؟ ولماذا كتب اسمها في كتب العلم والتاريخ؟

- يا لها من قصة مشوقة!
ماذا فعلت يا أمي كي تصبح عالمة ومعروفة حتى يومنا هذا؟

- تعلمت من أبيها علوم الفقه والدين واللغة، وتعلمت الأمور السياسية، وكانت تغرف من علم أبيها دون توقف. وبعد أن كبرت أصبحت عالمة مثله ومرجعا لأهل عصرها، كان الناس يقصدونها من كل مكان. وكانت تعلّم النساء أمور الدين، وتجيب عن أسئلتهن الفقهية. وكانت أيضا تدعوهن لطلب العلم. لم تتوقف عند هذا، بل كتبت العديد من الكتب في الفقه والأدب، وستجدين كتبها في المكتبات العمانية لأنها من الأثار العلمية الخالدة.

- أمي.
- نعم يا حبيبتي
- أريد أن أصبح مثلها
- ستصبحين يا حبيبتي
- كيف؟
- بالعلم والمعرفة والعزيمة
هل تعلمين أنها حين كبرت أصبحت معروفة بصدقها وعلمها ووقارها وجمالها، ولذلك خطبها الكثيرون. لكن الله قدر لها أن تتزوج إمام عمان عزّان بن قيس بن عزّان بن قيس البوسَعِيدي حيث بويع بالإمامة من قبل (هيئة الحل والعقد) وهم كبار العلماء كوالِدها العلاّمة سعيد بن خلفان الخليليّ والشيخ صالح بن علي الحارثي والشيخ محمد بن سليم الغاربي وغيرهم من العلماء.

- أمي؟ زوجها اسمه عزان بن قيس؟
- نعم، الإمام عزان بن قيس البوسعيدي
- إذن مدرسة عزان بن قيس سميت على اسمه
- نعم يا ابنتي، هناك العديد من المدارس التي سميت بأسماء علماء وحكام وقادة وغيرهم من أبناء عمان الخالدين.

أنت تعلمين أنها لم تكن امرأة عادية، لذلك حين تزوجت شاركت زوجها بطولاته وانتصاراته، فكانت تقاسمه أعباء الحكم وتحدياته، وهو يثق في حكمها وآرائها السياسية فكان يرجع لمشورتها وهي تسانده في أعماله وتشاركه ما تعلمته من أبيها. وقد عاشت معه حياة طيبة، لكن الله لم يرزقها بأبناء. ولأنها امرأة غير عادية فلم تستسلم للحزن أو البكاء بل استمرت في تعليم الناس ومساعدة زوجها في نشر العدل والسلام في عمان. حياتها مع زوجها الإمام عزان بن قيس البوسعيدي الذي ينتمي إلى نسل الإمام أحمد ابن سعيد البوسعيدي زادتها خبرة وعلما.

مسكينة الشيخة شمساء، لم تدم سعادتها طويلا، فقد استشهد زوجها بعد حكم دام عامين وأربعة أشهر استطاع من خلالها إعادة عمان لهيبتها وقوتها بعد طرد الغزاة، فكانت فترة حكمه عظيمة رغم قصرها، فقد سعى لترسيخ قيم الحكم التي تعتمد على مبدأ الشورى والعدالة والحرية. حين توفي الإمام عزان كانت السيدةُ شَمْساءُ شابةً في مُقْتَبَلِ عمرها، ولم تقبل أن تتزوج بعده وفاء وتضحية له، وقالت قولَتَها المشهورةَ "أَرَجُلٌ بعدَ عَزَّان؟".

وبعد استشهاد زوجها الإمام عزان بن قيس انتقلت برفقة أخيها أحمد بن سعيد الخليلي إلى سمائل حيث احتضنتهم قبيلة بني رواحة بسبب العلاقة الودية مع أسرة آل الخليلي، فعاشت بقية حياتها في تلك المدينة العمانية الجميلة التي خرج منها أول رجل أسلم من أهل عمان وهو الصحابي مازن بن غضوبة، كما تميزت هذه المدينة بأنها واحة من البساتين الزراعية النضرة يتخللها وادٍ غزيرة مياهه، مستمرّ جريانه، وحيث الأفلاج التي تحفها الأبراج الدفاعية المبنية على قمم الجبال وحوافها، فكانت الشيخة شمساء الخليلية تعيش بين هذه المفردات الجميلة من البيئة العمانية.

لم تنته مساهمات الشيخة شمساء، بل عندما قامت إمامة ابن أخيها الإمام مُحمّد بن عبدالله بن سعيد الخليلي الذي تولى الحكم خلال الفترة (١٩٣٠ - ١٩٥٤م) أسهمت في نصرة هذه الإمامة ودعمها بسخاء، لما لمسته في ابن أخيها من العدل والسماحة والتواضع، فكانت تُعِينهُ في أمور دولته وتُنفِقُ الأموالَ لِمُناصرَته ودعم دولة الإمامة التي كانت عاصمتها نزوى، وكلما حلت ضائقة مالية بدولة الإمامة تقدمت الشيخة شمساء بسخاء داعمة للدولة بما لديها من أموال، وقد تلجأ لبيع بعض من أموالها الزراعية في سمائل لتغطية مصاريف دولة الإمامة.

لقد تبوأت منزلة رفيعة؛ لأنها نشأت في بيت علم ودين ولأنها أحبت أن تكون مثل أبيها ولذلك هي اليوم قدوة عظيمة، فبوركت تلك الأنفس الصادقة والأرواح الطاهرة سموا وعلوا في الحياة والممات.

- ماذا حدث بعد ذلك يا أمي؟
أكملي أرجوك...

رغم قسوة الظروف التي مرت بها هذه الشيخة الجليلة والعالمة الورعة من استشهاد زوجها الإمام عزان وهي في العشرين من عمرها ولم يمر على زواجهما أكثر من عامين، ثم استشهاد أبيها الذي كان يمثل لها الحياة بكل تفاصيلها، ومعه استشهد أخوها محمد إلا أنها ظلت صابرة ومحتسبة، حتى توفيت في سَمَائل سنة ٩٣٣ا م ودُفِنت فيها.

رحم الله شمساء الخليلية رحمة عظيمة فقد تركت لجيل النساء قدوة طيبة ونموذجاً يحتذى به للمرأة العمانية الصالحة التي تسعى لخدمة وطنها وأمتها.

سيظل اسمها عاليا مثل غيرها من النماذج العمانية الشهيرة مثل: الشعثاء بنت جابر بن زيد، وعاتكة بنت المهلب، وعائشة بنت راشد الريامية، وعائشة بنت عبدالله الراسبية، وعائشة بنت عيسى الحارثية وما لا يحصى من أسماء النساء العمانيات اللاتي بقيت ذكراهن حاضرة في أذهان الناس إلى يومنا هذا.

والحمدلله... في عصرنا الحاضر الزاهي الذي نعيش تحت رايته الخفاقة التي يقودها جلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم -حفظه الله ورعاه- برزت نساء عمانيات أخلصن العمل للمجتمع والوطن والأمة والإنسانية، اقتداء بسيدات عظيمات حققن لعمان إنجازات عظيمة. فلكل تلك النساء تحية إجلال وإكبار وتقدير واحترام.

- أنا سعيدة جدا بهذه القصة يا أمي. ولن أنسى ما فعلته السيدة شمساء، ولا أريد أن انتقل لمدرسة أخرى. بل سأظل في مدرستي وسأكون شمساء العالمة في عهد مولانا السلطان قابوس -حفظه الله ورعاه- حتى لو كنت في مدرسة أخرى.

الرحلة

من غرائب المناخ والجغرافيا أن تسير لساعات في طريق صحراوي تلفحك حرارة الشمس ويضجرك الطريق الذي يبدو لك كل لحظة أن لا نهاية له.

هكذا كان يشعر محمد وهو مع أهله في رحلة لقضاء إجازة الصيف في مدينة ظفار. فالطريق الطويل ممل، وكلما كان يمر بمنطقة يتسلى مع أبيه بالسؤال عنها. كان الحديث مسليا بالفعل فلم يتوقع محمد أن يكون لطريق طويل من مدينة لمدينة كل البيئات المتنوعة من جبال وسهول وبحار وصحاري. لم يكن الطريق شاقا رغم المسافة البعيدة فلم يكد محمد يمل من مكان حتى يأتي غيره.

كانت أنفسهم تواقة لمشاهدة خريف ظفار الذي ملأ مسامعهم، لذلك ما إن بدؤوا بصعود سلسلة الجبال التي تفصل بادية ظفار عن سهلها وبحرها، حتى ظهرت لهم ملامح الخريف بسحبه ورذاذه واخضرار نباتاته.

قال محمد:

- يا الله ما أجمل الخريف!

أخرجت فاطمة رأسها من النافذة وقالت بصوت يملؤه الفرح:

- إنه جنة حقيقية يا أبي، الخضرة والجبال والماء والرذاذ، شيء لا يصدق.

ابتسمت الأم وهي تقول:

- هذه الجنة تذكرنا بجنة الآخرة، لقد أصبحت جبال ظفار حدائق وجناناً غناء تزهو منحدراتها ووديانها بالعشب والغدران الصافية، انظروا إلى المراعي الخصبة التي تكسو الجبال خضرةً وجمالا. وبعد أن وصلوا صلالة أدهشهم منظر أشجار النارجيل التي تشمخ في سماء البلاد، وهي تعانق سحب الخريف كان المنظر رائعا، وكلما عبروا مسافة كانت سعادتهم أكبر.

بعد وصولهم إلى الفندق، استراحوا قليلا وفي المساء انطلقوا لزيارة المدينة والاستمتاع بمنظرها ليلا.

بعد تجوال ليلة جميلة في مناطق صلالة المختلفة، أمرهم والدهم أن يناموا مبكرا لأنهم سينطلقون في الصباح إلى مدينة مرباط التي عرفت بمينائها الشهير في العصور السابقة، والذي كانت تُصدّر منه الخيول العربية إلى الهند والعراق وغيرها من المناطق.

فرح محمد بهذا القرار؛ لأنه أكثر ما يحب في حياته زيارة المعالم التاريخية، وخاصة الشواهد الأثرية.

طلب محمد من أبيه أولا زيارة قبر الصحابي الجليل زهير بن قرضم. ابتسم أبوه ووعده بذلك، لكن سأله عن سر هذا الاهتمام. أخبره محمد أن الكثير من الناس لا يعرفون عن هذا الصحابي العماني، والكثير من زملائه بالمدرسة يجهلون وجوده تماما ولا يعرفون أن هناك صحابة عمانيين غير مازن بن غضوبة الذي خرج من سمائل إلى المدينة المنورة بعد أن سمع عن الإسلام وأراد أن يتعرف عليه، والتقى بالنبي (صلى الله عليه وسلم) فأسلم على يديه، وعاد إلى عمان داعيا أهل بلاده للإسلام.

جميل يا محمد، كلنا نعرف قصة الصحابي مازن بن غضوبة، قالت الأم، لكن ماذا تعرف أنت عن زهير بن قرضم المهري؟

أجاب: قرأت إنه عندما انتشر خبر الرجل الذي يدعو إلى دين جديد في شبه الجزيرة العربية، بدأ الناس يتحدثون عن هذا الخبر العظيم الذي لم تعهده هذه المنطقة منذ زمن بعيد. فهذا الدين يدعو إلى عبادة الله وحده، وإلى المساواة والعلم والأخلاق والسماحة مما شجع الناس على السؤال عنه، والبحث فيما جاء به. لذلك تجهز زهير بن قرضم المهري للرحيل للالتقاء بالنبي (صلى الله عليه وسلم). فأخذ زاده وراحلته، وانطلق يطوي القفار متوجها إلى الحجاز حيث بدأ الإسلام ينتشر، فلما وصل زهير مدينة رسول الله استقبله بحفاوة كبيرة، ففرش له رداءه وقربه وأكرمه.

قالت الأم: يا الله! كم تأثرت بهذه الحكاية. لقد أثرت زاد بي الشوق لزيارة قبر هذا الصحابي العماني الجليل الذي قطع آلاف الأميال في زمن كان السفر فيه صعبا ويستمر لأشهر طويلة، وكيف استطاع أن يشق طريقا من ظفار إلى المدينة المنورة، ولمسافات طويلة مع خطورة الطريق ووعورته، ونحن الذين تعبنا من مسافة عشر ساعات بالسيارة ونحن جالسون ومستريحون؟

في الصباح الباكر انطلقت الأسرة إلى مرباط، وحالما وصلوا إليها أدهشهم جمالها، وخاصة شاطئها الرملي. تجولوا فيها فزاروا الحصن القديم، وجبل سمحان الذي يطل على المدينة بارتفاعه. وأثناء توجههم إلى هناك، مروا قرب قبر قديم حيث توقف الأب،

وقال:

- هـذا قبـر الصحابـي العمانـي زهيـر بـن قرضـم المهـري مـن مدينـة مرباط. فكما تعلمـون أن أهـل عمـان دخلـوا فـي الإسـلام طوعـاً لا كرهـاً، رغبـة لا رهبـة، وقـد أثنـى عليهـم الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام بقولـه الخالـد: "لـو أن أهـل عمـان أتيـت مـا سبوك ولا ضربوك".

التفتت الأم نحو محمد قائلة:

- أكمـل لـي الحكايـة يا محمـد، مـاذا حـدث بعـد أن وصـل زهيـر بـن قرضم المدينة المنورة؟

أجاب:

- منذ وصوله إلى المدينة المنورة أكرمه النبي (صلى الله عليه وسلم)، وأحسن استقباله، حينما علم أنه قطع مسافات طويلة متحديا مخاطر الطريق.

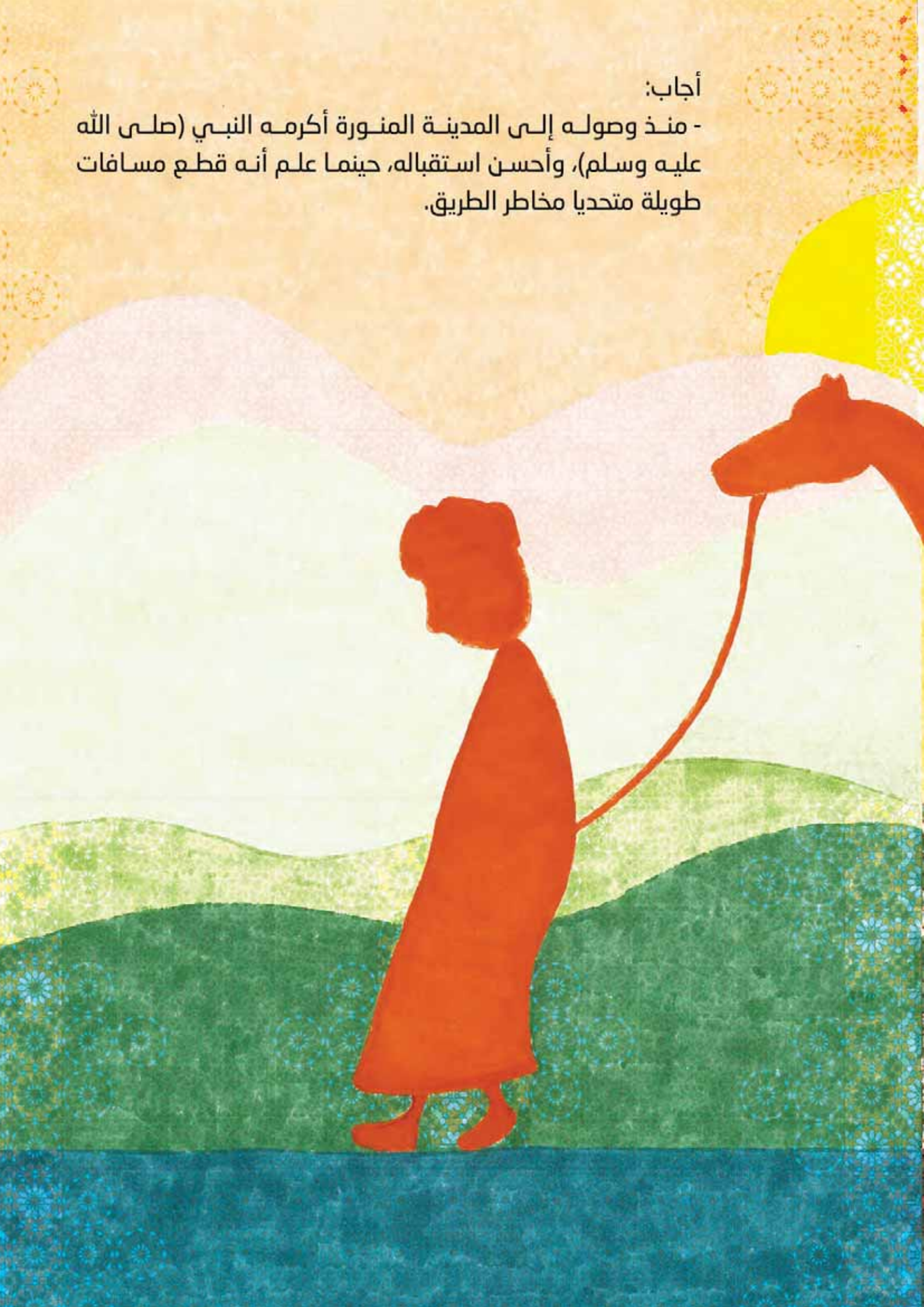

فظل بالمدينة فترة يتعلّم من النبي تعاليم الدين الإسلامي، وعندما طلب الرجوع إلى شحر عمان (ظفار) أمره النبي (صلى الله عليه وسلم) بتبليغ الدعوة لأهل بلاده، فعاد الصحابي زهير إلى بلاده حاملاً معه رسالة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى أهلها، وقام بالدعوة إلى الإسلام، فاستجابوا له، ودخلوا في دين الله أفواجاً.

قالت فاطمة:

- إذن قام بمهمة الدعوة إلى الدين الجديد، كما فعل مازن بن غضوبة في سمائل وكعب بن برشة في صحار، وغيرهم من الصحابة العمانيين.

هذه المرة أجاب الأب:

- نعم، فقد أصبح الإسلام دين الدولة الرسمي حين أسلم ملكا عمان جيفر وعبد ابني الجلندى، اللذين بعثا برسائل إلى أهل عمان بعد إسلامهما سواء في الشمال أو الجنوب يدعوان الجميع للدخول في هذا الدين الحنيف، وذكرت كتب التاريخ بأنهما بعثا رسالة إلى قبائل مهرة في شحر عمان (ظفار) يدعوانهم فيها للدخول في الإسلام.

ما زال عقل الأم يفكر برحلة الصحابي الجليل فسألت:

- وهل بقي الصحابي زهير في ظفار، أم ارتحل إلى مكان آخر؟

أجابها محمد:

- عاش بين مدن ظفار معلماً وداعياً للخير، وتشرفت عمان بأن يكون ابنها زهير بن قرضم المهري صحابياً زار النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة، وحظي بقربه وضيافته وإكرامه. فهنيئا لأهل عمان بهذه الفضائل والمنن التي ساقها الله لهم.

انتهى التجوال في مدينة مرباط، وحان وقت العودة للفندق، كانت القلوب مليئة بالفخر وكل واحد منهم يحمل في رأسه حكاية سيحكيها لأصحابه عن صحابي عماني جليل يستحق أن يعرف عنه جميع العمانيين فبسببه انتشر الإسلام في بقاع كثيرة في عمان.

رحلتهم هذه علمتهم الكثير ورحلة الصحابي زهير بن قرضم علمتهم أكثر.

المنقذة

أشرقت الشمس على بلدة سمد الشأن الصغيرة. واستيقظت فاطمة وقلبها يملؤه الفرح والنشاط. فهي اليوم ستسافر مع والدها إلى جزيرة سقطرى لزيارة أحد أقاربهم الذي عيّنه الإمام الصلت بن مالك الخروصي واليا على الجزيرة، واسمه القاسم ابن محمد الجهضمي السمدي. منذ ذلك الحين وجزيرة سقطرى تابعة لحكم أئمة عمان. هذه القصة حدثت في القرن الثالث الهجري. وفاطمة تحب السفر عبر البحر كثيرا، وتحب ركوب السفن.

كانت المسافة إلى الجزيرة بعيدة؛ لذلك استمرت الرحلة أياما طويلة. وكانت الرحلة آمنة؛ لأن العمانيين كانوا أسياد البحر. والسفر يتم بكل سهولة فهم يمتلكون أساطيل بحرية للتجارة مع مناطق بعيدة كالهند والصين وجنوب شرق آسيا وسواحل شرق إفريقيا. ولا غرابة في أن ينتقل العمانيون عبر البحار بين منطقة وأخرى بكل سلاسة ويسر.

في أحد الأيام رأى الربان فاطمة واقفة وحدها تراقب البحر، فاقترب منها وسألها عن اسمها. أخبرته باسمها وسألها إذا كانت تحب البحر. فأجابته بأنها تحب السفر والبحر كثيرا. ثم سألها عن جزيرة سقطرى. قالت فاطمة إنها لا تعرفها.

قال الربان: تقع جزيرة سقطرى في أقصى الجنوب من عمان حيث تقابل سواحل جنوب ظفار وباقي سواحل المهرة وحضرموت، على مدخل خليج عدن مقابل الساحل الشرقي لإفريقيا. أي إنها تقع على طرق التجارة العالمية، ولها أهميتها الاستراتيجية الكبيرة؛ لذلك تعرضت الجزيرة لاعتداءات عديدة وأهمها الهجوم الذي جاءهم من نصارى الحبشة. إلا أن سكانها استنجدوا بالإمام الجلندى بن مسعود الذي تصدى لهم وانتصر عليهم. ثم كتب معهم عهدا بعدم الاعتداء على المسلمين. والحبشة ملتزمون بهذا العهد منذ فترة طويلة.

وصلت السفينة لميناء سقطرى الجميل. واستقبلهم الوالي أجمل استقبال وأسكنهم منزلا خاصا بهم. دهشت فاطمة من جمال المكان. فقد كانت الطبيعة ساحرة والمناظر خلابة والطقس معتدلا وينابيع المياه في كل مكان. ولأن الجزيرة كانت تطل على المحيط الهندي فقد كانت تهب عليها نسائم باردة تضيف على سكانها بهجة وراحة. طال مقام فاطمة وأبيها في الجزيرة وهم سعداء وهانئون. ولكن استمرار الحال من المحال ففي أحد الأيام قام النصارى القاطنون في الجزيرة بالتمرد على الوالي العماني وسكانها العرب فهجموا عليه بعد أن

تعاونوا مع نصارى الحبشة، فقتلوه وعاثوا فساداً وظلماً وجورا بالسكان الآمنين، فخرّبوا المساجد وأحرقوا الكتب ونهبوا ثروة الجزيرة. فنقضوا بذلك العهد القديم دون سابق إنذار. بعد أن كان الوالي وأهل البلاد يعاملونهم أحسن معاملة، وكأنهم من أهل البلاد فحفظ لهم الإمام الصلت إنسانيتهم ووفر لهم العيش الكريم فلم يجبرهم على الدخول في الإسلام، ولم يضايقهم، بل أعطاهم حرية العبادة. لكنهم قابلوا الإحسان بالإساءة.

كل تلك الفضائع كانت تعذب فاطمة ليل نهار، كانت ترى يوميا مقتل أهلها وأقاربها والناس الأبرياء، وكان النهب والسلب وحرق الكتب يجعلها تعيش صدمة بعد أخرى. فجعت بما حدث وتألمت كثيرا، مما جعلها تفكر في إنقاذ الجزيرة.

فاطمة الجهضمية كانت تلقب بالزهراء تيمنا بابنة الرسول (صلى الله عليه وسلم). كانت صاحبة علم وأدب. فكرت كثيرا ولم تجد حيلة إلا كتابة قصيدة خاطبت فيها الإمام الصلت بن مالك وصفت فيها تفاصيل ما يحدث في جزيرة سقطرى وما شاهدته من خراب وطلبت منه إنقاذ البلاد والمسلمين من النصارى الذين لم يبقوا شيئا، وناشدته بسرعة الحضور واستعادة دين الإسلام والأمن والسلام.

عندما وصلت القصيدة مسامع الإمام الصلت بن مالك في عاصمته نزوى قام مذهولا من أثر المصاب الجلل الذي ألمَّ بتلك الجزيرة الآمنة، فجهز أسطولا بحريا يضم مائة سفينة وسفينة بقيادة القائدين محمد بن عشيرة وسعيد بن شملال، وكانت الراية العمانية البيضاء شعار دولة الأئمة ترفرف على أشرعة الأسطول العماني الذي يمخر عباب البحار متجها لحماية سكان جزيرة سقطرى العمانية. وقد أمر الإمام القائدين بوصية عظيمة وعهد فيه تفاصيل وإرشادات للناس والبلاد.

بعد أن وصلت الحملة البحرية جزيرة سقطرى تمكن القائدان من الهجوم على النصارى وبسرعة هائلة تم استعادة جزيرة سقطرى من المتمردين النصارى إلى حضن الدولة العمانية. ليس هذا فحسب بل تم تخليص الأسرى من الرجال والنساء والأطفال من سجون المتمردين، وأعادوا بناء المساجد والمنازل التي دمرت، ثم أمنوا الطرق البحرية المارة بتلك المنطقة من خطر القراصنة النصارى.

تلك الفتاة السقطرية التي قادها القدر لزيارة سقطرى هي في أوج ازدهارها، كانت سببا في نجاتها من عدوان النصارى. فكلماتها أثرت في مشاعر الإمام، وجعلته يسرع في حماية الجزيرة. فيا له من عمل شجاع! لقد كان عملا رائعا من شاعرة عمانية استغاثت بالإمام الصلت بن مالك الذي هب لنصرة أهله في سقطرى، وأعادها عربية إسلامية كما كانت.

هذه قصة امرأة عمانية عظيمة، لم تتوان عن المساعدة ولم تتأخر في إنقاذ أهلها بكلمات بسيطة في قصيدة رائعة.

رجل الإصلاح

أن تعيش في بلد غير بلدك، وتصبح فيها عالما متتبعا خطى أجدادك في نشر العلم والمعرفة والإصلاح، فأنت بحق تستحق أن تكون من رجال الإصلاح العظماء. من هؤلاء العظماء عالم عماني ما يزال التاريخ يمجد أعماله حتى اليوم. هو العلامة الأمين بن علي المزروعي الرستاقي الذي ترك بصمة عمانية في شرقي إفريقيا رغم أنه ولد في ممباسا ونشأ فيها.

تاريخ وجود هذه العائلة العمانية في إفريقيا يعود لزمن بعيد جدا، وذلك عندما حرر جيش الإمام قيد الأرض سيف بن سلطان العربي ساحل شرقي إفريقيا بقيادة مبارك بن غريب المزروعي، والذي سيطر على قلعة ممباسا العتيدة من الغزاة البرتغاليين عام ١١١٠هـ/ ١٦٩٨م. ثم بعد ذلك تم تعيين ناصر بن عبدالله بن محمد المزروعي والياً لليعاربة على سواحل إفريقيا الشرقية، وفي أواخر عهد اليعاربة قدم على تلك السواحل محمد ابن عثمان وإخوانه فتولى ولايتها. وعندما ضعفت دولة اليعاربة استقلوا بولاية ممباسا وما جاورها عن خارج التبعية العمانية لفترة من الزمن، بعدها عادت تلك المناطق مرة أخرى تحت سيطرة الدولة العمانية في عهد السيد سعيد بن سلطان البوسعيدي. وهكذا بدأ استقرار المزاريع في ممباسا، وهناك ولد العلامة الأمين بن علي المزروعي عام ١٨٩٢م، وعاش فيها وتوفي بها عام ١٩٤٧م وعمره ٥٥ عاما.

لم تكن حياته عادية، بل إنه اشتغل على مشروع بناء جيل مسلم مثقف وواع في شرقي إفريقيا. هذا الرجل قضى حياته في البحث والعلم والدعوة والإرشاد والإصلاح حتى مات وبين يدي الناس كنز من العلوم والمعرفة.

أحب الشيخ الأمين ممباسا؛ لأنها مقر أجداده أولا، ولأنها من أهم موانئ شرقي إفريقيا، وهي مركز تجاري مهم، ومحطة لتوقف السفن التجارية، كما أنها تمتلك ثروة حيوانية كبيرة.

منذ بداية الوجود العماني في شرقي إفريقيا أخذ العمانيون على عاتقهم تعليم الناس مبادئ الدين الإسلامي و اللغة العربية. وفي ممباسا أنشأ أجدادنا المدارس والمساجد التي استقبلت أفواجاً من طلاب العلم في مختلف العلوم، وخاصة العلوم الشرعية. درس الشيخ الأمين علوم الدين واللغة على أيدي علماء عمانيين وعرب. ولشدة نباهته وحبه

للعلم واتقانه للغة العربية بجانب اللغة السواحيلية، أصبح الشيخ الأمين حين كبر قاضي قضاة كينيا. وذلك على خطى والده الذي كان قاضياً في ممباسا للسيد ماجد بن سعيد بن سلطان.

اهتم المزروعي بتعليم المسلمين شتى أنواع العلوم الدينية والفقهية، ولضمان نشر المعرفة والوعي الديني للناس فقد شرع في تأليف الكتب الدينية باللغة السواحيلية وهو بذلك يعد أول من ألف باللغة السواحيلية.

كان يحلم بنشر شتى أنواع العلوم والمعرفة، ولكي يكون قريباً من المسلمين في مختلف المناطق ويتفهم احتياجاتهم ومشاكلهم كان يحرص على متابعة الصحف والمجلات العربية والإسلامية. قد شغل فكره مجال الصحافة والنشر. فبدأ بتأسيس مجلة تصدر باللغة السواحلية عام ١٩٣٠م أسماها "الصحيفة". ولم يكتف بذلك، لأنه يعلم أن للصحافة دورا كبيرا في سرعة انتشار المعرفة، ولذلك اجتهد وبحث حتى أصدر عام ١٩٣٢م جريدة باللغتين العربية والسواحيلية وأسماها "جريدة الإصلاح". التي استقى اسمها من الآية الكريمة: (إن أريدَ إلا الإصلاحَ ما استطعتُ).

كان الشيخ نشطاً جدا، فلا يكل ولا يمل فمع التأليف والكتابة في الصحيفة، كان يقدّم دروساً في اللغة العربية في مساجد ممباسا، وقام بفتح مكتبته الخاصة لينهل منها طلاب العلم ويستفيدوا من محتوياتها. اشتهرت سمعته في إعطاء الدروس فجاء إليه طلاب العلم من زنجبار والمناطق المجاورة. ومنها أصبح أحد علماء الإصلاح في العالم الإسلامي الذين ساهموا بإصلاح أحوال الناس عبر المقالات التي كان ينشرها في جريدة الإصلاح، ومن المراجع المهمة في الساحل الشرقي لإفريقيا.

شغل باله أوضاع المسلمين فركز في مقالاته على الإسهام الحضاري للدولة الإسلامية في أوروبا، وأسباب تردي وانحطاط المسلمين التي لخصها في بعدهم عن جذورهم الإسلامية وعاداتهم وهويتهم العربية، كما تناول الهجمة الاستعمارية على أبناء المسلمين في المعاهد والمؤسسات التعليمية القائمة على النظم الغربية، ودعا إلى أهمية تضمين المناهج الدراسية مقررات تزود الطلاب والدارسين الثقافة العربية الإسلامية لمواجهة تلك التحديات". فألّف كتابا أسماه "هداية الأطفال" وهو من الكتب التربوية التي سعت إلى تنشئة الأجيال على الأخلاق والقيم، والتمسك بالعادات والتقاليد والأصالة العمانية المستمدة من التراث العربي الإسلامي.

أسس الأمين المزروعي الجمعية العربية في زنجبار، والتي عنيت بحماية حقوق العرب في منطقة شرق إفريقيا من خلال اطلاعه على أفكار المجددين في حركة النهضة والإصلاح التي نشطت في العالم العربي والإسلامي في تلك الفترة. وكان يتابع بشغف ما تتضمنه الدوريات والمجلات العربية في القاهرة. وكذلك كان مطلعاً على المجلات والكتب التي كانت متداولة في أيدي صفوة علماء ساحل شرق افريقيا خصوصاً في زنجبار ومباسا. ولقد تأثر الشيخ الأمين في كتاباته برواد الفكر السياسي الإسلامي التي هبت على المجتمعات الإسلامية وكان تأثيرها كبيراً؛ عليه لأنها كانت تهدف لصياغة الفكر العربي الإسلامي لمواجهة المشاكل والتحديات وقضايا العصر في تلك الفترة.

من خلال نشاطه في شتى المجالات الثقافية والتربوية. قام بنقد سياسات الإدارة البريطانية التعليمية الرامية في مناهجها الدراسية إلى إبعاد إدخال تعليم اللغة العربية ضمن المقررات في المدارس الحكومية، وكان نقد الشيخ المزروعي نابعاً من شعوره بأن هذه السياسة امتداد لحركة

التغريب (أي تغليب ثقافة الغرب) التي كانت واضحة في ممارسة السلطات البريطانية. وخلص المزروعي إلى أنه مادامت الحكومة البريطانية فشلت في تقدير وإدراك هذه القيم الدينية والثقافية، فعلى المسلمين بناء وإنشاء مدارسهم الخاصة.

من أبنائه البارزين عُرف ابنه علي بن الأمين الذي ولد عام ١٩٣٣ وتوفي عام ٢٠١٤ . فهو الأستاذ الجامعي والكاتب السياسي، والمثقف، وعالم الاجتماع، والمؤرخ، والمفكر الإسلامي، ويعد من أبرز المفكرين المسلمين الأفارقة من أصول عمانية، ونتيجة لهذه المؤهلات تم تصنيفه في إحدى المجلات العالمية من أهم مئة شخصية عالمية مؤثرة.

هذا هو تاريخ العلامة الأمين بن علي المزروعي الرستاقي العماني الذي ترك للوجود العماني بصمة مميزة في شرقي إفريقيا ما زال صداها يتردد حتى الآن. هذه هي الشخصية العمانية التي تنير الظلمة أينما حلت.

كتاب
العين
النقط والشكل

وجه من ذهب

ذات صباح، اجتمع ثلاثة رجال عمانيين على ساحل الباطنة ليبدؤوا رحلة تاريخية إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز يشتكون إليه سوء معاملة الوالي لأهل عمان ليفك كربهم من ظلمه وبطشه. فرحلوا تاركين عائلاتهم وأهاليهم. في أثناء تلك الرحلة كانت عائلة أحمد الفراهيدي أحد هؤلاء الرجال والتي تسكن في بلدة ودام بساحل الباطنة في سلطنة عمان تستقبل مولودا جديدا. علت أصوات الفرح والتبريكات في كل مكان، وسمي الولد الجديد "الخليل".

نشأ الخليل بين أحضان أهله وعائلته، ومنذ صغره كان أبوه يعلمه تلاوة القرآن الكريم لما لاحظه عليه من ذكاء وفطنة. كان الخليل سعيدا ومطمئنا بين أهله وأصدقائه يلعب ويلهو في قريته كأي ولد آخر. حتى جاء يوم اضطر فيه أن يفترق عن أصحابه حين قررت عائلته الرحيل إلى البصرة للعيش فيها مع أقاربهم. كان الخليل وقتها طفلا صغيرا لم يبلغ السادسة من عمره، لكنه كان ذكيا وشجاعا ويعرف أن قرار الرحيل كان في مصلحة العائلة.

كانت البصرة في ذلك الوقت، مدينة جميلة تحيط بها أشجار النخيل، وتتوزع الأنهار على جانبيها. لكن أكثر ما كان يميزها مجالس العلم وحلقات الدرس المنتشرة في المساجد، لذلك كان الناس يأتون إليها من كل مكان بحثا عن العلم والمعرفة. بعد أن استقرت العائلة في البصرة قرر والد الخليل أن يبدأ في تعليم ابنه، فأخذه إلى مسجد البصرة وهناك رأى الخليل حلقات من الدروس المتنوعة يحضرها المتعلمون من كل الأعمار، ففرح وشعر أنه في المكان المناسب. لاحظ معلم القرآن الكريم أن الخليل يتميز بذكاء شديد حتى إنه ومنذ اليوم الأول تحدى المعلم في أنه يستطيع حفظ ربع من أرباع القرآن في كل يوم. وبعد مائتين وأربعين يوما أتم الخليل حفظ القرآن وأحسن ترتيله. فأثنى عليه المعلم، وقال لأبيه بأنه أذكى فتيان البصرة وأحسنهم ذاكرة، وتنبأ له بشأن عظيم.

بعد فترة ظهر شغف الخليل بالعلم فصار يتردد على جلسات التفسير والحديث والنحو والشعر. فترك اللعب والسهر مع الأصدقاء. كانت عبقرية الخليل ونبوغه وولعه بالدرس والبحث سببا في إعجاب أساتذته به، فلم يبخلوا عليه بشيء من علمهم. ولذكائه كان يؤمن بتنوع مصادر التعلم، فلم يأخذ العلم من أستاذ واحد بل انتقل من شيخ لآخر، ومن حلقة في مسجد إلى أخرى في المربد. إلا أنه ومن شدة حبه للقرآن الكريم، بدأت دروس النحو تشده كثيرا خاصة للمنافسة العلمية والفكرية بين مدرسة

البصرة النحوية، ومدرسة الكوفة. وكلما كبر بدأت شخصيته تتضح أكثر، فعُرف بأخلاقه وتواضعه وصبره وشغفه بالعلم. اقترن الخليل بالبصرة وأصبح يعرف بالبصري، ويكنى بأبي عبدالرحمن. حين شعر الخليل بحاجة لمعرفة أسرار اللغة العربية رحل إلى بوادي نجد وتهامة والحجاز في الجزيرة العربية لكي يأخذ الأسرار من أفواه الرجال، ولم يكتف حتى استوعب منها الكثير حيث اطلع على شعر العرب ونثرهم.

هذا الرجل العظيم المتواضع، افتتح ساحة للعلم في بيته لتدريس اللغة العربية والأدب، وليس في المسجد لشدة تواضعه واحترامه لأساتذته، وحتى يظل مستمعا ومتعلما. كان عدد الدارسين يزداد يوما بعد يوم، وبعضهم أصبح من العلماء المعروفين مثل: الأصمعي وسيبويه والنضر بن شميل وغيرهم.

لاحظت أم الخليل أنه في كل صباح يغادر البيت مصطحباً أوراقه ومحبرته لا يعود إلا في الليل. قلقت أمه عليه، وأخبرت صديقه أبا علي. فذهب للبحث عنه حتى وجده جالسا تحت ظل شجرة فوق حجر يشكل الحروف بواوات وألفات وياءات ودوائر وسينات صغيرة فوق الحروف. استغرب أبو علي من هذه الكتابة، إلا أن الخليل شرحها له وأوضح أنها علامات تشكيل جديدة. كانت حروف القرآن الكريم تكتب بحبرين: الأسود للحروف المنقوطة وغير المنقوطة، والأحمر لعلامات التشكيل التي كانت عبارة عن نقطة حمراء على يمين الحرف ونقطة حمراء على يسار الحرف. أما الخليل فقد ابتكر تشكيلا جديدا يكتب بالحبر الأسود مثل الحبر الذي يكتب به الحروف. حين رأى أبو علي هذه الكتابة بدأ في قراءتها بمساعدة الخليل، فوجد أنه يقرأ بكل سهولة وأنه يفهم معاني الكلمات بشكل أسرع. فشاع استخدام هذه الطريقة في الكتابة رغم أن الجميع عارضها في البداية. ألّف الخليل "كتاب النقط والشكل" الذي خلّص الناس من الطريقة العسيرة التي كانت متبعة وهي طريقة النقط.

كان الأعاجم يسخرون من العرب لأنه ليس هناك قواعد للشعر العربي ولا للعزف والألحان. فانشغل الخليل بهذا الكلام وظل يفكر كثيرا في كل وقت. وبينما كان يمشي في سوق النحاسين الذين يصنعون الأدوات النحاسية، لفت انتباهه ضربات المطارق، فشبهها بصوت الموسيقى، فاهتم بذلك وواصل سيره وهو يفكر ويحلل الضربات التي يسمعها ويشكل منها مجموعات منفردة وثنائية وثلاثية، فكتب ما اكتشفه. لكنه لم يكتف بذلك فذهب إلى سوق القصارين وهو سوق غاسلي الثياب فشد انتباهه ضرباتهم على الثياب والمفارش التي وضعوها على الحجر والأرض حتى يزيلوا الأوساخ منها. فكانت تصدر عن الضربات أصواتا متنوعة كأنها رنين مكتوم. فبدأ يكتب ملاحظاته مرة أخرى، ثم خطر بباله أن يستمع للغناء والموسيقى من مجلس أبي رافع شيخ العازفين. فكان يذهب إليه كل يوم يسجل ويدون ما يسمعه. اشتغل الخليل على الأصوات المختلفة فترة طويلة حتى ألف كتابين في علم الموسيقى وقواعدها وهما "كتاب النغم" و"كتاب الإيقاع". وكانت هذه بداية لاكتشافه علم العروض.

استمر الخليل في مراقبة الأصوات ويبحث عنها في كل مكان، فقد كان ينزل رأسه في بئر بمنزله، فيقرأ الشعر أو يقول كلاما متنوعا حتى يسمع تردد الصوت وانسجام الكلمات، وكان يخرج أصواتا مختلفة لا معنى لها، يكررها ليوافق بينها. وفي ذات يوم رآه ابنه عبدالرحمن واستغرب من حال أبيه وظن أنه قد أصابه جنون. فجلس يصرخ "جُن أبي" "جُن أبي" حتى سمعه الناس والتفوا حوله، متعجبين من حاله. لكن الخليل شرح لهم أنه يحاول أن يضع علما لقواعد الشعر العربي، فهدأ الناس واستمعوا له، وتركوه في حاله. بعد سنتين اهتدى الخليل إلى أوزان الشعر وبحورها واهتم بضبط القافية وبذلك انتهى الخليل إلى وضع علم العروض، وهو علم لم يسبقه إليه أحد. فألف "كتاب العروض" ضمّنه ما توصل إليه في علم العروض من أوزان الشعر والدوائر العروضية التي

ابتكرها، وهذا استجابة من الله لدعائه حين ذهب للحج ودعا الله أن يهبه علما لم يصل إليه أحد من قبل. لم يكن الخليل مهتما باللغة والنحو فقط، فقد كان عالما أيضا بعلم الرياضيات والمنطق وكلها علوم ساعدته في إبراز علمه وثقافته ونبوغه في اللغة.

وَصف بأنه كان أشعث الرأس، شاحب اللون، يلبس ثيابا بسيطة ويأكل القليل جدا من الطعام. فقد كان منشغلا بالعلم أكثر من أي شيء آخر، حتى كان يقال أنه يخرج من بيته دون هدف حتى يجد نفسه في الصحراء.

مرت البصرة بوقت صعب جدا، ومرت عليها سنوات جدب فعاش الناس عيشة صعبة لا يجدون ما يأكلون، وانتشرت الأمراض، فتركها الكثير من أهلها. سمع أمير خراسان بما حل بالخليل وأهله فبعث بالطعام والشراب لأهل البصرة وطلب من الخليل أن يقيم معه في قصره إلا أنه رفض أن يترك بلده وأهله. فأعاد الأمير طلبه كي يساعد الخليل لكي يواصل علمه واكتشافاته. فوافق الخليل أخيرا وانتقل مع زوجته وابنه عبدالرحمن، فبكى أهل البصرة لفراقه وحزن الجميع. وفي قصر الأمير، خطرت ببال الخليل فكرة جمع كلام العرب في كتاب واحد. كان الخليل في ذلك الوقت مريضا وكبيرا في السن. لكن الأمير ساعده ورعاه حتى يكتب كتابه. وأخيرا وبمساعدة طلاب العلم تمكن من إنهاء كتاب العين وهو أول معجم للغة العربية جمع فيه الكلمات العربية، ورتب الكلمات داخل المعجم على مخارج الحروف، بادئا بحرف العين الذي سمي به. فكان هذا كتاب " العين" أشهر مؤلفاته الذي يعد أصل جميع الكتب المؤلفة والمصنفة في اللغة التي عرف بها ضبط الألفاظ واشتقاقها.

في أحد الأيام، وبينما كان الخليل ذاهباً إلى المسجد للصلاة، وكان يبدو شارد الذهن يفكر في أمر عميق، فتعثرت قدمه وسقط ضاربا رأسه في عمود المسجد. فشج رأسه وسال منه الدم الكثير. فتسارع الناس لإنقاذه فوجدوه مبتسما وهو يقول لهم بأنه أدى رسالته ولا يخاف الموت ولو كان في عمره يوم سيقضيه في تعليم الناس.

هذا هو الخليل بن أحمد الفراهيدي العماني الذي قال عنه أبو سفيان الثوري: من أراد أن ينظر إلى وجه من ذهب، فلينظر إلى وجه الخليل بن أحمد".

هذا العالم العماني الفذ، هو أول من وضع منهجا لعلوم اللغة العربية، فهو من اخترع التشكيل الذي نعرفه اليوم، وهو أول من وضع قواعد للشعر والموسيقى. وكان كتابه " العين" سببا لكثير من العلماء والدارسين في تتبع أثره وتأليف معاجم لغوية أخرى تفيد البشرية وتخدم اللغة العربية، حتى اليوم. من الكتب التي ألفها الخليل بن أحمد الفراهيدي أيضا: كتاب الشواهد: وهو كتاب يحتوي على بعض الشواهد التي سمعها من الأعراب، وكتاب العوامل وهو كتاب مختص بالعوامل النحوية، وكتاب الجمل وهو كتاب مؤلف في أحوال الجملة العربية في النحو. وكتاب المُعَمّى وهو مؤلف في الألغاز، وهو من ابتكار الخليل الذي لم يسبقه أحد في هذا الفن.
ألا يحق لنا أن نفخر بأجدادنا وعلمائنا وكل من ولد في هذه الأرض الطيبة.

المراجع: كتاب " الخليل أبو المعاجم العربية" - تأليف سليمان فياض عن مركز الأهرام للترجمة والنشر.

كتاب
العين

شيخ الناس

اجتمع رجل بأبنائه قبل وفاته وأمرهم بإحضارعدد من السهام، فحزمها مع بعضها، وسألهم هل تستطيعون كسرها؟
فأجابوه كلا.
فقال لهم : هكذا تكون الجماعة قوية، لايستطيع العدو التغلب عليها بسهولة، ثم نهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأوصاهم بتقوى الله والتمسك بالقرآن الكريم، والاقتداء بالرسول (صلى الله عليه وسلم) والصحابة والصالحين وصلة الأرحام.
هذا الرجل مات بسبب مرض أصيب به وهو في طريقه لتحرير مدينة مرو بالعراق سنة ٨٢ هـ، بعد أن بقي والياً على خراسان.

ثم مات الرجل ...

بكاه أبناؤه وأهله وجميع المسلمين. لم يكن فراقه سهلا لأن ما فعله للأمة الإسلامية كان سببا في نشر دين الله في شعوب بلاد فارس وخراسان ووسط آسيا وبسببه انتهت عصور القسوة والظلام. وساعد على تحرير مناطق كثيرة من القهر والجبروت الذي حل بها، فتوسعت دولة المسلمين.

في مدينة دبا العمانية، ولد القائد المسلم المهلب بن أبي صفرة الأزدي العماني. حيث عاش في هذه المدينة القوية التي عرفت بأهميتها واجتماع أسواق العرب فيها. وميناؤها كان يستقبل البضائع من الهند والسند والصين وشرقي إفريقيا، وعبره كانت تنقل البضائع إلى باقي موانئ الخليج العربي. ثم انتقلت أسرة المهلب من دبا إلى أدم التي كانت هي الأخرى واحدة من أهم مدن عمان الداخلية.

منذ صغره كان يسمع عن إنجازات والده أبي صفرة العتكي، فهو من الصحابة الكرام الذين التقوا بالرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة. وحين توفي الرسول ذهب والده مع الوفد العماني إلى مكة للتعزية في وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ومبايعة خليفته من بعده، وكان أبو صفرة المتحدث باسم الوفد العماني أمام الخليفة أبي بكر الصديق. فهو سيدّ مقدّم في قومه وعشيرته، وكان فارسا مغوارا شارك في الفتوحات الإسلامية. ومنذ دخول أهل عمان في الإسلام كانت أسرة أبي صفرة ممن حمل لواء الدعوة ونشر دين الله في عمان وخارجها في بلاد العراق وفارس وخراسان وإقليم بلاد ما وراء النهر.

هذا القائد الشجاع كان له حضور عسكري بارز سطّرته كتب التاريخ بعد أن قاد حملة عسكرية لتحرير أحد البلدان في منطقة الأهواز التي تقع جنوب العراق، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ولأن مكانته عظيمة وله دور كبير في تحقيق السلم والاستقرار ونشر الإسلام كلّفه الإمام علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- بعد معركة الجمل ٦٣ هـ أن ينادي في الناس الذين هربوا من البصرة خشية استمرار الحرب بالرجوع إلى منازلهم وأهليهم في المدينة، فحمل المهلب بن أبي صفرة لواء الصلح والأمن والأمان لأولئك الفارين.

أصبح المهلب بن أبي صفرة رجل الفتوحات الأول في الشرق ومن أهم قادة الجيوش التي حررت الكثير من المناطق لتنضم تحت راية الإسلام بعد أن عانت الظلم والقهر تحت نفوذ الامبراطوريات الفارسية والرومانية التي اضطهدت الشعوب.

استمر في قيادته للجيوش الإسلامية حتى عهد الأمويين، ففي عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان خرج المهلب مع جيش المسلمين بقيادة عبد الرحمن بن سمرة عام ٤٢ هـ فحرروا عدداً من البلدان في منطقة خراسان إلى أن وصلوا إلى أكبر مدن تلك المنطقة وهي كابل حيث حررها جيش المسلمين، وقد برز المهلب في هذه المعركة بروزاً كبيراً، فاستطاع هذا القائد العماني الوصول إلى ملك كابل وأصابه، فتوقّفت المعركة واستسلم الملك، وعندما رأى عدالة المسلمين وحرصهم على أرواح سكان كابل، وحفاظهم على أملاك الناس، أعلن ملك كابل إسلامه فأسلم وأسلم معه الكثير من سكان مملكته. وهكذا كان الإسلام دين رحمة وهداية وفضيلة لا دين قتل وإجرام وتدمير، وكان للقائد العماني المهلب بن أبي صفرة دور مهم في تحقيق هذه القيم الإسلامية النبيلة.

وفي عام ٥٠ هـ خرج القائد العماني المهلب بن أبي صفرة مجاهداً مع والي خراسان الحكم بن عمرو الغفاري لتحرير منطقة جبلية صعبة تتخللها أودية عميقة وضيقة، فأدركهم العدو وسط تلك الأودية، وحاصرهم من كل جانب، وأصبح جيش المسلمين قاب قوسين أو أدنى من الهلاك. وهنا تدخل القائد العسكري والماهر في الخطط الحربية العماني المهلب بن أبي صفرة، فتمكّن من إيجاد مخرج آمن لجيش المسلمين، واستطاع بحكمته أن يلقي القبض على أحد كبار قادة جيش العدو، ويطلب منه أن يدله على مخرج من تلك المنطقة الوعرة المحاصرة، وإن لم يفعل سيكون مصيره القتل وإن فعل نجا، فقبل ذلك القائد عرض المهلب، ودلهم على طريق يخرجون منه لأنه خبير بطرق وممرات تلك المنطقة الجبلية الصعبة. وهكذا استطاع المسلمون الخروج من هذا المأزق الخطير بفضل الله وما أودعه في عقل القائد العماني من مهارة وفطنة في إدارة المواقف الخطرة.

وفي عام ٥٦ هـ خرج جيش المسلمين بقيادة سعيد بن عثمان بن عفان نحو المشرق، وكان القائد العماني المهلب بن أبي صفرة أحد أهم قادته العسكريين ومستشاريه السياسيين.

وواصل المسلمون تحرير مناطق وسط آسيا واحدة تلوى الأخرى، وفتحوا مدن إقليم بلاد ما وراء النهر. وخلال تلك المعارك التي خاضها المهلب دفاعا عن الإنسانية وخدمة للإسلام، فقد إحدى عينيه تضحية وفداء للدين الإسلامي الذي عظم شأنه، وقوي بنيانه، وتأسست أركانه.

وقد أنشد في ذلك قائلا :

لئن فُقئت عيني لقد بقيت نفسي ... وفيها بحمد الله عن تلك ما يُنسى
إذا جاء أمن الله أعيا خيولنـــــــا ... ولا بُد أن تعمى العيون لدى الرمس

أسهم القائد العماني المهلب بن أبي صفرة في تحقيق الاستقرار للدولة الإسلامية، حيث أنه منذ عام ٥٦ هـ تمكن من الدفاع عن مدينة البصرة عندما تعرضت للهجوم من قبل الخارجين عن الدولة فاستنجد به أهلها قائلين له: "أنت شيخ الناس، وسيف العراق". وبذلك تمكن المهلب من تحقيق ما لم يستطع غيره من القادة العسكريين الذين تم إرسالهم قبله لدحر هؤلاء، وهكذا استطاع بدهائه العسكري وحكمته من القضاء عليهم وإراحة الناس من شرورهم بعد أن استمرت حروبه ضدهم حوالي ٢١ سنة وانتهت عام ٧٧ هـ.

الخبر الأهم لكم عن المهلب بن أبي صفرة هو أنه حسب ما ذكر بعض المؤرخين جد الأسرة الحاكمة في عمان اليوم. إذ كان يكنى بأبي سعيد، لذلك عُدَّت قبيلة البوسعيدي من نسل هذه الشخصية، ويعود نسب القائد العماني العظيم السلطان قابوس بن سعيد المعظم -حفظه الله ورعاه- إليه.

صاحب الماء

في إحدى البيوت المتواضعة في مدينة بلنسية بالأندلس كان هناك رجل يئن من الألم. زوجته وأولاده حوله غير قادرين على فعل شيء له. في ذلك الوقت كان عدد الأطباء قليلاً جدا ومن الصعب الوصول إليهم. كانوا يحاولون مساعدته بتوفير الراحة والتغذية، لكن المرض يشتد عليه يوما بعد يوم.

طَرق باب البيت، ودخل أحد أصدقاء الرجل الذين جاؤوا لزيارته. قال لصديقه: لا تقلق فقد وجدت الطبيب المناسب وهو في الطريق.

بعد قليل، طرق باب البيت مرة أخرى. استقبل الابن الأكبر الضيف الذي كان يحمل كتابا وحقيبة من الجلد. إنه الطبيب الذي ينتظرونه. خرج الجميع من الغرفة وبقي الطبيب مع المريض، فحصه جيدا وتحدث معه وعلى الفور أعطاه الأدوية المناسبة ووعده بزيارته قريبا لمتابعة صحته. ثم تركه ليستريح.

خرج إلى عائلة الرجل وصديقه. اجتمع بهم وشرح لهم المرض المصاب به. كانوا يسمعون بهذا المرض لأول مرة. لم يفهموا كلمة مسرطن ولا سرطان. لكنه شرح لهم بأنه مرض خطير ويجب متابعته باستمرار لأنه ينتشر بسرعة وسيبذل جهده لمساعدته وتخليصه منه، لكنه قال لهم إنه في الزيارة القادمة سيستبدل له دمه. شهقت الزوجة من هذه الكلمة، وقالت: كيف تستبدل دمه ماذا ستفعل هل سيموت؟؟ طمأنها الطبيب وقال لها: لا تخافي لقد أجريت هذه العملية عدة مرات.

رحل الطبيب تاركا العائلة في ذهول شديد. لكنه عاد إليهم بعد عدة أيام وأجرى عملية نقل الدم للمريض الذي بدأت صحته تتحسن يوما بعد يوم حتى شفي من مرضه.

كان الناس يعرفون ذلك الطبيب الذي يدعى ابن الذهبي، وكان اسمه معروفا في كل أوروبا. ومع أنه يعيش في إسبانيا إلا أن أصله من مدينة بعيدة جدا. إنه عماني عربي من مدينة عمانية تسمى صحار. ذلك الطبيب له حكاية لا يمكن أن ينساها التاريخ.

اسمه أبو محمد عبدالله بن محمد الأزدي وهو ينتسب إلى قبائل أزد عمان. ولد في مدينة صحار الشهيرة التي كان ميناؤها يستقبل سفن الشرق القادمة إلى الخليج العربي وبلاد فارس والعراق والشام ثم منها إلى أوروبا، كما أن ذلك الميناء معروف بالأسواق التي تعج بالناس القادمين من المشرق والمغرب.

كان ابن الذهبي شابا صغيرا حين بدأ يهتم بتعلم العلوم والطب. فبدأ في مدينته صحار ثم شعر أنه يجب أن يزور العالم ليتعلم حتى يصبح طبيبا وعالما. فرحل من صحار إلى العراق وزار

جميع مدنها ثم اختار أن يستقر في حي الأزد في مدينة البصرة. بقي هناك فترة طويلة، تعلم فيها ما يمكن أن يتعلمه حتى شعر بضرورة الرحيل مرة أخرى؛ لأنه سمع بالطبيب المشهور ابن سينا فسافر إلى بلاد فارس ليلتقي به ويتعلم منه، رحب به ابن سينا حيث تعلم الكثير عن الأمراض وأسبابها وطرق علاجها. لكن ذلك لا يكفي، فالمرض بحاجة إلى أدوية وطريقة صنع الأدوية كان يختص بها أطباء آخرون، من أشهرهم البيروني. لذلك رحل ابن الذهبي إلى خراسان ليتعلم الصيدلة من البيروني. بقي معه مدة من الزمن سجل فيها ما يمكن أن يتعلمه. وكان يتناقش مع معلمه في كل شيء، حتى أصبح عارفا بالتركيبات الدوائية. ولأنه لا يكتفي من العلم سافر مرة أخرى للبحث والاكتشاف، وكانت وجهته الجديدة بلاد الشام حيث استقر لفترة من الزمن في مدينة القدس، ثم هاجر بعدها إلى مصر والمغرب. وفي كل بلاد كان يجد شيئا جديدا ويضيف لمعرفته الكثير، فبرع في الفيزياء والكيمياء والصيدلة والطب الذي تميز به فأصبح طبيبا متمكنا. ليس هذا فحسب، بل إنه خلال رحلاته تعلم الكثير من الفلسفة وغيرها من العلوم التي مكنته من أن يصبح موسوعيا في معارفه وأفكاره ونظرياته. وأخيرا قرر أن يستقر في بلد واحد، وكانت مدينة بلنسية. حيث قرر أن يستمر في الكتابة والتعلم من هناك.

في أحد الأيام، وبينما كان ابن الذهبي مستغرقا في العمل بكتابة وصفة طبية، سمع طرقا على بابه. فخرج ليرى من القادم. فكان شابا في مقتبل العمر رحب به ابن الذهبي ودعاه للدخول.

قال الشاب: لقد سمعت عنك الكثير، وبحثت عنك في كل مكان.

ابتسم ابن الذهبي وقال له: أهلا بك. لكن من أين أنت؟

قال الشاب: أنا من بلادك. من صحار. فرح ابن الذهبي كثيرا وسأله عن البلاد وأحوالها وناسها. فأخبره كل شيء. وقال له: لقد حققت منجزات علمية عظيمة واسمك يتردد في كل البلاد. أنت تعرف الأوضاع في أوروبا هذه الفترة، والجهل والظلام الذي يعيشون فيه. لكنك أنت وغيرك من العلماء المسلمين أظهرتم كفاءتكم وتميزكم.

ابتسم ابن الذهبي وقال: لأن العلم يعلم يا بني. نحن نتعلم لنستفيد ونفيد. ولأن العلم حق لكل طالب له.

قال الشاب: لذلك جئت إليك. لقد قرأت كتابك " الماء" المعجم الطبي اللغوي الأول عدة مرات حتى كدت أحفظه. لكنني بحاجة لبعض التفسيرات التي لن يشرحها لي غيرك. كيف تمكنت من جمع كل تلك المعارف والعلوم؟ قال له: لقد زرت بلاد كثيرة وتتلمذت على أيدي أعظم العلماء وهذا المعجم ذخيرة العلوم التي تعلمتها عن الفرس والرومان واليونان والهنود والصينيين إضافة إلى معارف علماء الحضارة الإسلامية. كان هدفي من هذا المعجم هو تعريب المصطلحات الطبية وما يتعلق بهذه المهنة من علاج وأدوية وغيرها لتستفيد البلاد العربية والاسلامية.

قام ابن الذهبي وأحضر خبزا ولبنا وفاكهة. ثم قال للضيف لتستريح أولا ومن ثم سأشرح لك كل شيء.

أقام الشاب العماني عند ابن الذهبي فترة من الزمن تعلم فيها الكثير من علوم الطب والصيدلة، وشرح له كتاب " الماء" المعجم الطبي العظيم الذي يقع في ثلاثة مجلدات.

اليوم وبعد مرور مئات السنين ما يزال إرث ابن الذهبي وغيره من العلماء العمانيين حاضرا ليس في بلدنا فقط، بل ظل تأثيره يرفد الحضارة الإسلامية والإنسانية بشتى المعارف. فهم أبدعوا وأعطوا جهدهم للإنسانية في مختلف العلوم المعرفية، وشكّلت عمان حينها رافداً من روافد العلم والفكر للأمة. لقد خرج من هذه الأرض الطيبة فقهاء وشعراء وأدباء وأطباء. تاريخنا مليء بشخصيات تاريخية تدفعنا للاقتداء بها لننهض بوطننا الغالي عمان، ونلبي نداء العلم والمعرفة.

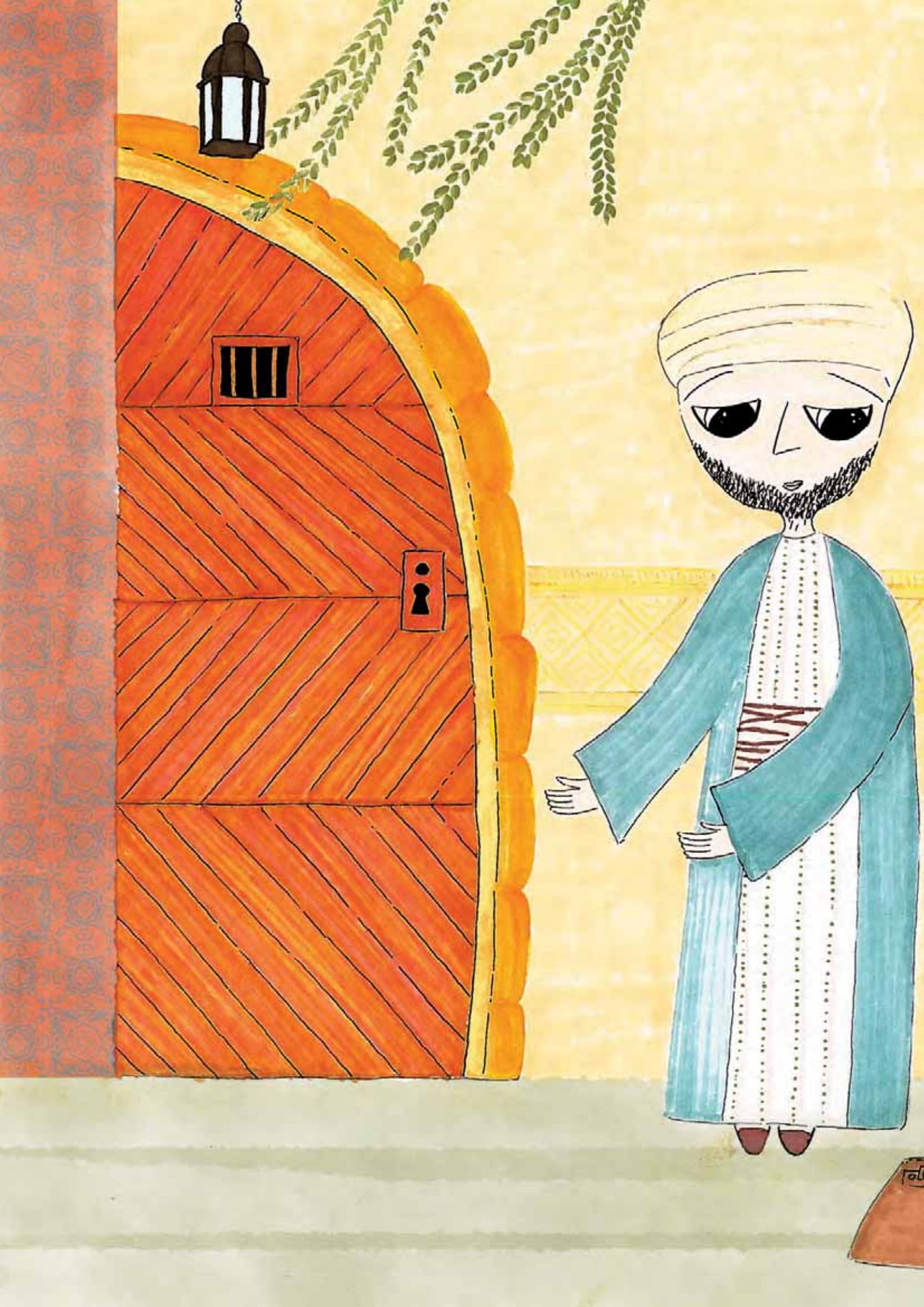

صانعة الانتصارات

في قلعة الرستاق العظيمة، وفي مجلس ممتلىء بالرجال تجلس فتاة صغيرة بجانب والدها. تنصت لكل ما يقوله والدها. تسأل عن كل شيء لا تفهمه. إنها تتحرك بسرعة وتتحدث كثيرا.

كانت سلمى وشيخة تلعبان في الحوش فجأة انتبهتا أن موزة ليست معهما. بحثتا عنها في كل مكان ولم تجداها. مر سلطان بجانبهما وسألتاه عنها. ابتسم وقال إنها مع أبي. اذهبا لبيتكما فهي لن تخرج قبل صلاة الظهر. تعبت الفتاتان من زيارة موزة واللعب بدونها كل يوم. فهي تقضي وقتا أطول مع أبيها.

قالت شيخة: أتعجب من موزة كثيرا كيف لا تشعر بالملل من الاستماع لأحاديث الرجال كل يوم. ردت عليها سلمى: لا تنسي أن والدها الإمام أحمد بن سعيد وهو من جعل عمان بلادا عظيمة وتريد أن تتعلم من والدها كي تصبح عظيمة مثله. هيا بنا...

بعد قليل، خرجت موزة وهي مبتسمة. لم تجد صديقتيها،
قال لها أخوها سلطان: تعالي أيتها الحكيمة لنقرأ.
لقد ذهبت صديقتاك.
ابتسمت له وجلست بجانبه.

مرت السنوات، وتوفي الإمام أحمد والدها، وحزنت البلاد على حاكم عمان الذي حررها ووحّدها. فقد كان القائد المناضل، والإمام الموحد، الذي يحظى باحترام الناس، ولن ينسوه أبدا.

عندما تسلم أخوها سلطان سدة الحكم كانت موزة الفتاة الصغيرة قد تزوجت، وأصبحت امرأة كبيرة مختلفة بعقلها وحكمتها ورزانتها عن باقي النساء. كان السيد سلطان شخصية مهيبة وله مكانة عظيمة بين أسرته والعمانيين، لكنه لم يكن يفارق أخته فقد كان يستشيرها في كل شيء ويثق في حكمها وحلها للأمور.

كانت السيدة موزة تحب أولاد أخيها سالم وسعيد وحمد كثيرا وتهتم بهم وترعاهم وتعلمهم، والسيد سلطان كان فخورا بها ومطمئنا على أولاده معها. ولذلك جعلها الوصية عليهم.

قرر السيد سلطان الذهاب لتفقد ممتلكات الدولة العمانية المنتشرة على طول شواطئ الخليج العربي الغربية منها والشرقية. كان الأسطول كبيرا والكل متأهب لهذه الجولة العظيمة. البحر رائع وربان السفينة متحكم في دفته. مضى الوقت والأسطول يمخر عباب البحر في هدوء وانسجام. ولكن في منتصف الليل حدث أمر مفاجئ، فبينما كان الأسطول في الجولة التفقدية لرعاياه في بعض الجزر التابعة لمملكته العمانية على الساحل الفارسي، فوجئوا بسفن القراصنة فتوسل إليه أتباعه أن يهرب ليلا في قارب صغير أجاب السلطان "إن الله لا يرضى أن أترك رجالي في ساعة الخطر"

فقرر مواجهتهم مع حراسه الشخصيين، وفي القتال الضاري الذي نشب عند الفجر، أخذ السيد سلطان يتقادى بسيفه الرماح الملقاة والسهام الطويلة الموجهة إليه، وكان يزأر كالأسد طوال الوقت وفي اللحظة التي بدأ فيها انتصار مؤكد، جاءت النهاية غير المتوقعة للسيد سلطان على يد أحد القراصنة، الذي أصابه بقذيفة بندقية، ومات متأثرا بجراحه ووقع ملاحوه في الأسر. وهكذا استشهد السيد سلطان عام (١٢١٩ هـ/١٨٠٤م) أعظم القادة العمانيين في تلك المعركة البحرية في مياه الخليج العربي.

في مسقط كانت الأمور سيئة أيضا، فقد توفي زوج السيدة موزة وحزنت حزنا شديدا. حزن جميع من في البلاد لحزنها، وحاولوا مواساتها، لكن الخبر الذي فوجئوا به بعد عدة أيام باستشهاد السيد سلطان كان فجيعة للجميع. تحملت السيدة موزة حزنها العظيم على وفاة زوجها واستشهاد شقيقها . فبصرت من أجل مصلحة البلاد، خاصة أن أبناء أخيها ما زالوا صغارا ولا يمكنهم التصرف في أمور البلاد.

لم يجعلها الحزن تتوقف ولا تتراجع وهذا هو الوقت المناسب لتظهر شجاعتها. كانت الأيام تمر ببطء والمسؤوليات تكبر وكان وزراء الدولة يرفعون تقاريرهم إليها، كما كانوا يأخذون الأوامر منها. فكرت السيدة موزة في من سيكون الحاكم الآن فالسيد سعيد ابن السيد سلطان ما يزال صغيرا. ولأنها امرأة حكيمة فقد هداها تفكيرها إلى ابن أخيها السيد بدر بن سيف بن الإمام أحمد حتى يتولى دفة الحكم ريثما يكبر السيد سعيد. فاتفقت معه ليأخذ بزمام الأمور. وهكذا وبفضل حكمتها ورعايتها استقرت أمور الحكم في البلاد وظل بدر لمدة عامين في الحكم.

اليوم الذي شعرت فيه السيدة موزة أن السيد سعيد بن سلطان أصبح مؤهلا للحكم رغم أنه لم يكن قد تجاوز الثالثة عشر من عمره أجلست أبناء أخيها بجانبها وشرحت لهم أهمية حزم الأمور وأن شخصية السيد سعيد القيادية وصفاته كالحكمة والحزم تؤهله لأن يكون حاكم البلاد. وساعدها في ذلك أن السيد سالم لم تكن لديه رغبة في الحكم. اطمأن الجميع لهذا الرأي ثم أعلنت لهم أن الحكم سينتقل الآن إلى السيد سعيد ابن سلطان ولأنه ما يزال صغيرا في تلك الفترة فقد وعدته بأن تقف بجانبه لمساندته على أمور الحكم. لم تكن مسؤوليتها قد انتهت لأنها أصبحت المستشارة السياسية له حيث كان يرجع إليها في الأمور التي تشكل عليه وذلك لخبرتها وتجربتها الطويلة منذ عهد والدها في الأمور السياسة.

انتقلت الأخبار إلى أخيها السيد قيس الذي غضب غضبا شديدا من انتقال الحكم للسيد سعيد لأنه ما يزل صغيرا، فأرسل جنوده للسيطرة على مسقط فأقام حصارا شنيعا على جميع من فيها وتأذى الحاكم وأهله. وكانت بداية لحرب أهلية يمكن أن تدمر مسقط وأن تبعث الأحقاد في نفوس العمانيين.

وبدون سابق إنذار وبشجاعة غير معهودة، خرجت السيدة موزة لمقابلة اخيها السيد قيس لعقد الصلح. تحدثت معه وفوضته في أن يفك الحصار عن مسقط وأن يعيد الأمن والأمان ولا يجعل للطامعين مجالا في إثارة الخراب والدمار. لكنه وللأسف رفض الصلح واستمر الحصار طويلا. كان هناك من يثير الفتن في نفس السيد قيس وإلا كيف له أن يرفض طلب أخته الغالية وأن يقبل بالتشتت والانقسام.

أصبح الوضع في قلعتي الجلالي والميراني صعبا جدا، فقد كادت المؤونة أن تنفد والنفوس بدأت تحبط. لكن عزيمة السيدة موزة كانت

تقوى أكثر وأكثر بسبب حبها لبلادها. ففي إحدى الليالي خرجت متنكرة بلباس الرجال، تراقب صمود المدافعين عن مسقط. فالتقت بأحد الحراس وحاولت أن تختبره فقالت له: سأدفع لك مبلغاً من المال حتى تسمح للمحاصرين بدخول المدينة. فغضب الحارس من هذه الإهانة، ورفع بندقيته وكاد أن يطلق عليها النار لولا أنها تداركت الأمر ووضّحت له من تكون. اطمأنت السيدة موزة على وفاء الحراس والمدافعين وبدأت تخطط جيدا للدفاع عن مسقط وتخليص الجلالي والميراني من هذا الحصار خاصة أن البارود وشك على الإنتهاء ولم يكن يكفي إلا لمعركة واحدة. وبينما كانت غارقة في تفكيرها رأت أحد الحراس راكضا إليها وأخبرها بأن الحديد نفذ تماماً. في تلك اللحظة لمعت فكرة برأسها وأمرت بتجميع المسامير وكل المعادن في المدينة بما فيها النقود الموجودة في خزينة القصر، ثم طلبت منهم أن يصهروها ويحولوها إلى طلقات للبنادق. تحمس الجميع لهذا الرأي وعمل كل من في مسقط لتنفيذ الأمر. لم تأخذ الاستعدادت وقتا طويلا وذلك لتعاون الجميع ورغبتهم في فك الحصار. بعد أن تم صهر جميع المعادن أمرت الجيش بمحاولة أخيرة لقهر الحصار. وبالفعل، أدت الخطة نتيجتها وفكّ الحصار عن مدينة مسقط، وتراجع المهاجمون، وعادت البلاد تزخر بالأمن والأمان مرة أخرى.

كبر السيد سعيد واستمر يحكم البلاد مستفيدا من نصائح عمته وشجاعته. وفي عهده ارتفعت مكانتها بين دول العالم في القرن التاسع عشر الميلادي وأُطلق عليها اسم "الامبراطورية العمانية" حيث كانت تمتد على مساحات شاسعة عبر قارتي آسيا وإفريقيا، ولها وجود قوي في المحيط الهندي ببحاره وخلجانه بداية من سواحل الخليج العربي شمالا إلى مدغشقر جنوبا.وقد استطاع السيد سعيد إدارة بلاد تتباعد أجزاؤها عن عاصمته مسافات طويلة. بقي السيد سعيد حاكما لعمان مدة ٥٠ عاما منذ عام (١٨٠٦- ١٨٥٦م) وهو الأطول حكما من بين حكام عمان عبر التاريخ.

لم تفارق السيدة موزة ابن اخيها، بل كانت معه تتابع إنجازاته خطوة خطوة. لم تتراجع يوما ولم تشتك بل كانت تضحي بكل شيء من أجل أن يبقى اسم عمان عاليا بين الأمم. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل إنها كانت تهتم باقتصاد البلاد ورفاهية الشعب. ولأنها تعرف أن الأمطار آنذاك نادرة في عمان وباقي أجزاء الخليج العربي التابعة للامبراطورية العمانية فقد شجعت السيد سعيد على الاهتمام بالأراضي الخصبة في شرقي إفريقيا لتوفر الأمطار الغزيرة هناك، وهذا سيؤمن مواسم زراعية جيدة.

أحب السيد سعيد هذه الفكرة، وبدأ يتردد على الساحل الشرقي لإفريقيا ليشرف على استثمار الأراضي الزراعية وفتح مجالات تجارية متنوعة حتى تنعم البلاد بالاستقرار الاقتصادي، ومن هنا كان قرار السيد سعيد بأن يجعل زنجبار عاصمة ثانية لعمان عام ١٨٣٢.

في ذلك العام وبعد عمر طويل من التضحيات والعمل المستمر توفيت السيدة موزة بنت الإمام أحمد بن سعيد، منهية دورها في حفظ عمان واستقرارها.

الحياة لا تدوم لأحد، لكن ما يتركه الإنسان هو ما يظل ثابتا في صحف التاريخ مهما تقادم الزمن. وهذا ما نراه باقيا حتى اليوم، تلك الدولة العظيمة التي بدأت منذ قرون طويلة استمرت تزدهر وتكبر بقادتها العظام وتضحياتهم ببقائها دولة شامخة. وهكذا كان ما بدأه الإمام أحمد بن سعيد أكمله أبناؤه واحفاده وما يشهد على ذلك الرجل العظيم بيننا الآن، إنه السلطان قابوس بن سعيد المعظم - حفظه الله ورعاه - حفيد الإمام أحمد بن سعيد الذي أعاد لعمان عظمتها وازدهارها وبفضل حكمته ما تزال محلقة في سماء المجد، خالدة بحضاراتها وإنجازاتها.

سلطنة عُمان
وزارة التربية والتعليم

تم بحمد الله